القط المقدس



تمثال لقط مصري قديم

رواية

"في داخل مخيّ يتجول، كما في شقته، قط جميل، عذب وفاتن. قط بالكاد تسمع له صوتاً حين يموء «إنه روح المكان الأليفة، يحكم، يترأس، يلهم كل الأمور في مملكته، هل تراه الجن أم تراه السيد الكلي الحضور؟"

الشاعر الفرنسي بودلير

-1-

كعادته يعشق بالتوس التسكع في شوارع المدينة، مع الفجر. يشاهد الشمس وهي تشرق بين بنايتين عاليتين قريبا من جسر يؤدي إلى الناصية الثانية من الشارع الذي يقع فيه مسكنه.

كان يسير بهدوء، متأملا ماذا بإمكانه أن يرسم اليوم، ربما تولد لوحة جديدة في الذهن مع تهاويم هذا الصباح الباريسي، المعطر برائحة ذكريات قديمة، لكن احتمالات الميلاد دائما ما تصعب ساعة يبدأ في الرسم. تحديدا عندما يمسك بالريشة ويحك رأسه عدة مرات بأصبع واحد ثم أصبعين، هما متورمان هذه الأيام لمرض غامض.

يكره بالتوس زيارة الطبيب، فقط عندما يتعلق الأمر بقطه الذي فقده قبل عدة سنوات؛ فلا تردد أبدا، فهو سيسارع إلى حمله في صندوق صغير بعد أن يفرش له ورد معطر من حديقة السطح في البيت، وسيكون بعد دقائق قليلة أمام عيادة الطبيب البيطري نيرون، ذلك الرجل القاسي كأسلافه.

يفهم قسوة نيرون، غير أنه لا بديل عنه، فالكل يشهد له بوصفه الطبيب الأكثر شهرة في هذه المنطقة على الأقل إن لم يكن في عموم باريس، فرنسا.

مرة قرر بالتوس أن يرسم نيرون على هيئة قط سيء المزاج، وبدأ في اللوحة فعلا، وتوقف ساعة أندلق اللون الأزرق على أرضية الغرفة، فرسم أشكالا مفزعة.

وإذا كان بالتوس كثيرا ما يخاف فقد توقف ولم يفكر أبدا في نيرون القاسي مرة أخرى. وفهم الأمر على أنه غضب من القطط. تلك الكائنات التي يدرك تماما أن لها كيمياء خاصة في رؤية العالم والتواصل معه، بخلافنا نحن البشر.

"كم نحن متعجرفون.. وندعي أننا نفهم كل شيء"

قال بالتوس لنيرون، وهو يفحص القطة بعد أن مدت لسانها برحابة وكأنها لا تعاني من وهن.

لم يعلق الطبيب البيطري الأحمق، كما تخيل بالتوس، فالحماقة تسكن في كل كائن يتعامل مع الكون على أنه خلق من أجلنا وحدنا. ولم يصمت الرسام أسرع للقول بغضب ممزوج بإبتسامة ساخرة:

"كم نحن تافهون!"

فهم نيرون الإشارة البسيطة من بالتوس، لكنه لم يرد وتظاهر كما لو أنه يحضر حقنة بنج أخرجها من الثلاجة المجاورة للرف الذي كان يجلس فيه كتاب بغلاف صغير. قرأ بالتوس العنوان العريض بالخط الأحمر المموج "راينر ماريا ريلكه". "هو ديوان شعر إذن" قال لنفسه.

كان يرغب في الثرثرة مع نيرون عن الشعر، وكيف أن القطط مثلت محور اهتمام في حياة الشاعر الألماني ريلكه، مثلما هي محور اهتمامه هو شخصيا بالتوس. لكن الطبيب لا يرغب في إضاعة الوقت فقد أومأ للزبون بأن العلاج قد تم، عليه أن يأخذ قطه ويغادر على الفور.

"كانت عيناه تشعان شررا، وفيه من صفات قط متوحش، قطط كتلك التي سكنت سهول سيبريا وعرفت كيف تتعامل مع الطقس البارد"، كان بالتوس يكلم نفسه وهو يغادر من الباب الفولاذي الكبير، محييا الزبائن الجالسين مع كلابهم وقططهم.

-2-

كتب ريلكه: «منذا الذي يعرف القطط حقاً؟ هل يمكن لكم أن تقولوا إنكم تعرفونها؟ أما أنا فأعترف بأن وجود القطط كان دائماً بالنسبة إليّ فرضية ثمة مجازفة كبرى في التأكيد عليها... ترى أوَليس على الحيوانات، كي تنتمي إلى عالمنا، أن تتوغل فيه بعض الشيء، إن عليها، ولو بنزر يسير، أن تخضع لنمط عيشنا، أن تتساهل معه، وإلا فإنها ستمضي وقتها وهي تقيس، نصف معادية نصف خائفة، تلك المسافة التي تفصلها عنا. وستكون تلك هي طريقتها في إقامة العلاقة مع الإنسان. ترى هل كان الإنسان معاصراً لها في أي لحظة من اللحظات؟ إنني أشكك في هذا. فقط أؤكد لكم انه يحدث في بعض الأحيان أن يقفز قط جاري عند الغسق، عبر جسدي، أما متجاهلاً إياي تماماً، أو كي يبرهن على أنني غير موجود».

عُرف الشاعر الألماني راينر ماريا ريلكه المولود بمدينة براغ التشيكية في العام 1875منذ صباه المبكر بحساسيته المفرطة إزاء العالم المحيط به، وميله الشديد إلى العزلة والانقطاع إلى التأمل. وبعدما تأكد من عدم قدرته على الانضمام إلى حياة الجماعة قرر أن يحيا حياةً بوهيمية متفردة عمادها الشعر والفنّ والترحال، حياة متوغلة في الوحشية كالقطط.

قطعا كانت حياة ريلكه معقدة، وقطعا لم تكن القطط هي كل شاغله، لكن تأمله العميق وكونه شاعرا جعل منه يرى في الحيوانات لاسيما القطط كائنات لها القدرة على ابتكار عوالمها الخاصة، وحتى بوهيمية الشاعر التي عاش بها كانت تستمد جزءا من نسيجها وألفتها من كونه تأمل كثيرا في القط.. هذا محتمل .. ولكن المؤكد أن التأمل يكسب الإنسان المعنى ويقرّبه من خواص الأشياء والكائنات، وليس ذلك النظر الخطي الذي يعيش به أغلب الناس. وهذا ما جعل ريلكه مختلفا سواء مع القطط أو الحيوانات بشكل عام أو الشق الحيواني الأكثر جراءة على القول بأنه ليس حيوانا، أي الإنسان.

ربما قبل أن يأتي بالتوس ويتخصص في رسم القطط، لم يكن ثمة أحد يعرف شيئا عن مشاعر ريلكه الحميمة اتجاه تلك الكائنات التي امتزج تاريخها الحقيقي والمجهول أيضا، بالكثير من الأساطير من عصر الفراعنة وما قبله وإلى التاريخ المعاصر.

ما فعله بالتوس الفرنسي المولد والمنحدر من أصول بولندية (1908 – 2001) أنه أعاد الحياة لعبارات شاعرية كان قد كتبها ريلكه ذات يوم، ربما حتى ريلكه نفسه لم يكن مشغولا كثيرا بما قال، وربما نسيه مطلقا، لكن بالتوس كان قد وجد ذلك النص واستند عليه في ترتيب أموره كرسام يبحث عن الشهرة، التي وجدها فعلا.

قليل من النقاد ناقش تجربة بالتوس على أنها اكتسبت نجاحها في تحويل أشعار ريلكه إلى رسومات، وهي حيلة يلجأ إليها الكثير من الفنانين لكنهم لا يقولون هذا الشيء، خشية الفضيحة، أو الاتهام بأنهم مجردون عن الخيال. لا أعتقد أنه هناك فنان جدير بالاحترام يمكن أن يلعن نفسه وفنه ويقول أنا سرقت الفكرة المعينة. وهناك شعراء يفعلون العكس يسطون على اللوحات من عصور مختلفة يتأملونها كثيرا ويحولون رؤاهم البصرية إلى قصائد.

لم يمارس بالتوس التخفي ولم يكن مداهنا كان جرئيا في الاطراء على ريلكه، وكثيرا ما أفصح في حوارات صحفية أنه عاشق كبير لريلكه، وأنه استفاد من تجربته ومن عوالمه الشعرية، أيضا كان يمر على ذكر بودلير وحديثه عن القطط. الغريب لا أحد اهتم، أعني النقاد**!**. وهو أمر يكشف أن النقاد هؤلاء أناس لهم وصفاتهم الخاصة بهم وأنهم يبتكرون عوالمهم ونصوصهم عن الفنون والنصوص من خلال ذواتهم، هم في الواقع لا يطرحون حلولا تكشف النص كما يقال كثيرا، لأنهم لا يفكرون في النص الذي أمامهم وهم يكتبون، إنهم فقط مشغولون بما يمكن أن تقوله أنفسهم، وفي هذا الجانب هم متحررون من تهمة الفضيحة.

من الجوانب التي لا يعرفها إلا قلة، ربما قلة هم أكاديمون متخصصون بدرجة بحتة في أعمال بالتوس ومسيرة حياته، أن بالتوس كان قد حاول في بداية حياته أن يمارس لعبة النقد، وقد كشف أحدهم – لم تسعفني الذاكرة لتذكر اسمه - في دراسة معمقة نشرتها جامعة السوربون قبل عدة سنوات عن "ميثولوجيا القط في الحضارات القديمة"، أن بالتوس كتب أكثر من نص نقدي حول أشعار ريلكه، كان محورها نظرة ريلكه للحيوانات بشكل مركزي.

لم ينل بالتوس إذن حظه كناقد، كان من الممكن أن يغير في مسار النقد الأوروبي الفرنسي الحديث، إن لم يغير النقد في أوروبا بشكل عام. وهنا يقول ذلك الأكاديمي على ما أذكر "كان صحيحا بدرجة ما أن ريلكه أُعْفِي من اكتشاف عظيم.. نعم ريلكه معروف ومكتشف .. لكن ما كتبه بالتوس وفي صفحات موجزة كان مؤثرا وعميقا.. لكن الواضح والمؤكد أن التاريخ في كافة أطيافه ثقافة وفنا وسياسة تحركه أمور لا نفهمها نحن البشر".

كان الأكاديمي يتحدث عن محرك سري أو خفي للتاريخ الإنساني.. ومن العبث أن نقول أن هذا السر وراءه القطط.. كما قال بالتوس مرة..

-3-

لم يكن نيرون سيء المزاج بالدرجة التي كان يتخيلها بالتوس، فهو مرح وبشوش وقادر على إضحاك أصدقائه وهم يجلسون في نادي ليلي قريبا من قوس النصر.

كان الأصدقاء ينتظرونه بفارغ الصبر ليس لأنه سيضحكهم فحسب، بروايات مطولة فيها كثير من الاختلاق عن مهنته التي يدور عالمها حول بشر يخدمون الحيوانات وليس العكس، كما جرت العادة. بل لأنه كان أيضا شاعرا، وكانت أشعاره أيضا تثير الضحك.

كان يسمي نفسه "ريلكه" تيمنا بالشاعر العظيم، ولا أحد من الأصدقاء اقتنع بهذه العلاقة المتوهمة بين شاعر حقيقي وآخر مزيف، لكن نيرون لم يكن يبالي بأقوالهم ولا ضحكاتهم أو حين ينفضون وهم سكارى في منتصف ليل نهاية الأسبوع، وهم يسبونه بشكل واضح.. ويغنون أغنية شاعت في تلك الأيام تتحدث عن رجل لا يفقه في الشعر يقول أنه يمكن أن يكتب أطول قصيدة حب في العالم لأجل محبوبته، ويسافر في قطار إلى بلد بعيد ليلتقي المحبوبة، لأنه أقسم أنه لن يكتب أي حرف قبل أن يستأذنها، وساعة يصل تخبره أنه وصل في الوقت المناسب لأن القصيدة التي كان من المفترض أن يكتبها هي موجودة قبل أن يفكر فيها، فقد سمعتها منه كاملة في الحلم ليلة أمس، وتبدأ في قراءة القصيدة التي حفظتها عن ظهر قلب وهي نائمة.

لم يكن نيرون يفهم علاقته بهذه الأغنية لتصبح سبة له آخر الليل، ولاحقا بعد إلحاح أخبره أحدهم بالسر: "شاعر هذه الأغنية طبيب بيطري مثلك لكنه شاعر حقيقي!"

يشعر نيرون بالغيظ، ويقرر ألا يقرأ أي قصيدة جديدة كتبها، بعد اليوم، على الأصدقاء، لكنه وبعد أن يلحون عليه وبعد أن يكون قد سكر، يتحفهم بالمزيد من الأشعار التي ستضحكهم مجددا.

الآن وبعد أن غادر بالتوس العيادة فإن نيرون شعر بضيق من نفسه، فهو يعرف من يكون بالتوس، لا أحد محترم في فرنسا يجهل هذا الفنان العبقري، لكن مصيبة نيرون أنه أحيانا يصير حيوانا، كما يصفه نفسه كثيرا في ساعة صدق يجلسها مع ذاته.

كان شعوره بالضيق بسبب أنه لمح اهتمام بالتوس بديوان "ريلكه" الموضوع على الرف، فمجرد الإشارة للشعر تذكره بأصدقاء الليل وسخريتهم منه. وأدرك نيرون أن الفنان عاشق القطط كان يريد أن يدير حوارا ما عن الشعر والفن، وعندما لم يجد تجاوبا آثر أن يحفظ ماء وجهه ويخرج بصحبة قطه المريض.

قال نيرون لنفسه: "كانت ساعة مناسبة لكي أتلقى درسا في الفن.. فالشعر والرسم هما شيء واحد كما أتصور.. وكان ممكنا لبالتوس أن يوفر لي الطريق إلى كتابة قصيدة جادة بحيث لا يكون هناك مزيد من الضحك في نهاية الأسبوع".

وقرر اللحاق بالفنان، لكن الوقت كان قد مضى، وعليه أن ينتظر عودته مرة ثانية إلى العيادة، فحتما سوف يمرض القط مرة أخرى، أو قد لا تتحسن حالته.. المهم أنه عائد..

ويفكر نيرون: "لو أنني أعرف أين يسكن، لذهبت إليه في الليل... لكنني للأسف لا أعرف!"

يتذكر فجأة أنه سجل عنوان المنزل على دفتر المراجعات الطبي وهو إجراء روتيني يقوم به، وقد غفل عنه لدقائق.. كيف حدث ذلك؟

"يا لك من مغفل يا نيرون"، يكلم نفسه بصوت مرتفع قبل أن يدخل الزبون الجديد بصحبة كلب ضخم الجثة على يده اليمين وقط على اليسار. وراقب نيرون المشهد كما لو أنه إحدى لوحات بالتوس، لاسيما مع مشهد الرجل بكرشه الممتدة وقميصه الأصفر وشاربه الغزير، ورائحة صابون الحمام المعطر بالجوافة، وكأن الزبون خارج من تحت الدش للتوّ.

قال ضاحكا دون أن يسمعه الرجل "لا أعتقد أن ثمة لوحة معطرة"

-4-

ربما لا يدرك الكثيرون ومنهم أنا، قبل أن أعرف ذلك قبل عدة أسابيع أن بالتوس دخل اللوفر، بعد حياته، أعني أن لوحاته أصبحت جزءا من هذا المتحف الكوني. وأسميه كوني لأنه ببساطة يجسد تاريخ الإنسانية، ذاكرة الريشة والفنانين الذين أفنوا حياتهم لأجل أن يكون الفن هو سر الحياة، لغزها ويكون أيضا المفتاح الذي تنفك به الأسئلة الكبيرة. وإلى جوار لوحات فنانين عباقرة كدافنشي كانت لوحات بالتوس تبدو غريبة أو مربكة بعض الشيء، ولك أن تتخيل أو تشاهد بصورة واضحة إذا زرت اللوفر، ذات يوم، أو ستزوه إن قدر لك ذلك. أن تلك القطط البرية والبوهيمية والسيامية وغيرها كانت تجلس بهدوء في اللوحات دون أن تحرك أذنابها. ولك أن تتخيل أيضا أن ذنبا يظل مفرودا لسنوات طويلة في اللوحة طبعا، دون حراك.

في السابع عشر من فبراير من عام 2001، كانت وفاة بالتوس، وفي سبتمبر دخلت مجموعة من لوحاته المتحف بعد إشارة من الرئيس الفرنسي جاك شيراك الذي لم يكن فنانا أو يفهم كثيرا في الفن، لكنه آثر أن يعمل بوصية رئيس الوزراء ليونيل جوسبان الذي رأى أن دخول بالتوس إلى اللوفر سيعطي إشارة جلية لأولئك الذين يرددون بصمت وأحيانا بصوت عال أن فرنسا عنصرية، وأنها لم تعد ذلك البلد الذي فجّر أكبر ثورة إنسانية في العصر الحديث، وأنها أيضا لم تعد تهتم بالفنون والثقافة أو تشكل منارة لها.

كان جوسبان، قارئا جيدا بخلاف شيراك الذي عكست عنه وسائل الإعلام صورة لم تكن صحيحة مطلقا، فقد روجت له صحف كلموند كبرى الصحف الفرنسية صورة المثقف العملاق، وكان الأمر مضحكا لمثقفين كبار حقيقيين في فرنسا كانوا يكتفون بالسخط المثير للشفقة على ما وصل إليه الإعلام الفرنسي من سوء. ويوم مات بالتوس، قالت الصحف أن شيراك رثاه وأعلن أن فرنسا فقدت إنسانا عظيما وفنانا عملاقا، لكن ما وراء ذلك كان الهمس، أن شيراك لا يعرف من هو بالتوس وربما لم يسمع عنه أصلا إلا ساعة أخبروه بموته، ولم تتجرأ صحيفة واحدة على التصدي لشيراك "الكذّاب" كما كتب صحفي فرنسي كان يرمز لاسمه بـ "س.د" كان يحرر صفحة في الملحق الأسبوعي للموند، وقد سطر الصحفي رأيه على شكل خطرفات يمكن أخذها بمحمل الجد لمن يقرأها بغير المعنى المباشر الذي يمكن أن يفهم للوهلة الأولى.

بغض النظر من كان صاحب فكرة إدخال لوحات بالتوس إلى اللوفر .. ولا أعتقد أن ليونيل جوسبان كان دافعه نبيلا أو أنه لم يكن عنصريا.. فإن " بالتازار كلوفسكي دي رولا" وهو الاسم الكامل لبالتوس، ولحسن الحظ مات في سويسرا، وبعيدا عن الأضواء، وهذا الأمر خدمه كثيرا، لأنه لو مات في باريس، لكان قد أصبح نسيا منسيا، وهذا الرأي يقول به الكثيرون، من أصدقاء

بالتوس القدامى الذين يعلمون تماما الظروف التي جعلته يهاجر من فرنسا ليقضي سنوات عمره الأخيرة في الريف السويسري.

يعلم الجميع أن أصول بالتوس تعود إلى بولندا، وأنه مهما فعل ليثبت أنه فرنسي أصيل، فلن يكون ذلك، لأن الفرنسيين مهما قدموا من احترام للغرباء والذين أصبحوا جزءا من نسيجهم وصاروا مواطنين يحملون الهوية الفرنسية، إلا أن هذا الشعب يظل أكثر عنصرية من الألمان الذين افترى عليهم التاريخ الحديث بوصفهم أكثر شعوب أوروبا تعجرفا وحب للذات ولوطن غامض ينتمون إليه مهما ابتعدوا عنه.

لهذه الأسباب.. كان بالتوس يشعر بالوحشة كثيرا حتى وهو يعرض لوحاته في معارض متنقلة في باريس أو مدن فرنسا الأخرى، بما في ذلك مرسيليا الساحلية حيث كان الناس هناك ولا يزالون طيبي الخاطر، وفيهم من روح الألفة وأوروبا القديمة. كان يناقش الناس ويتكلم معهم حول أعماله ويتحدث كثيرا عن معنى الحيوانات في حياة الإنسان بشكل عام والقطط خصوصا، وفي غرارة نفسه كان يسخر كثيرا: "الحيوان هو الذي يكون مثلي ويعيش في بلد يجرده من الإنسانية".

وإلى حد ما فقد كان بالتوس يحن كثيرا إلى بولندا رغم أنه لم يولد فيها، ولم يزرها كثيرا، لكن فلسفته في هذا المقام تقوم على القلب أكثر من العقلانية، كان يقول "إن مسقط رأس الأجداد هو المكان الذي ينتمي إليه المرء ويحن إليه.. فمهما حاول الإنسان أن يقول إنني ابن هذا البلد أو ذاك، إلا أن عليه الصدق مع الذات.. وللفنان بوجه خاص يصبح الموضوع أكثر تعقيدا".

لا أحد أضاء هذه الجوانب من حياة بالتوس بشكل مشبع، لكن النقطة المهمة التي قتلت بحثا أن أكبر دليل على إحساس بالتوس بالغربة في فرنسا أنه اختار أن يبني لنفسه سياجا وأن يعيش مع القطط أكثر من البشر، وأن يشكل عوالمه وفنه من تلك الكائنات التي كان يعتقد جازما أنها ليست جديرة بالحب فحسب، بل أن تاريخها قد يكون أهم بكثير من تاريخ البشرية لو أن بحوثا جادة ومدفوعة بميزانيات ضخمة قامت في إطار النبش في هذا الجانب، أموال طائلة كتلك التي تنفق على أبحاث الفضاء بحثا عن الحياة في كواكب أخرى.

-5-

كانت ستينات القرن الماضي مسرحا لسيادة ثقافة نخبوية في فرنسا تشير إلى القطط على أنها شيء مركزي في الحياة، ولا يعرف أغلب الباحثين من أين جاءت هذه الفكرة وانتشرت سريعا، والإشارة إلى باحثين فيها بعض الحذر، لأن الدقة أن البحث نفسه أصبح مسألة مثار شك في النصف الثاني من القرن العشرين، لأن كثيرا مما يكتب في الجامعات بشكل خاص كان مدفوعا بأسباب نفعية، فقد بدأ الأكاديميون يفقدون بريقهم القديم وصارت جامعات كالسوربون تصدر أناسا هم تجار أكثر من انتمائهم لخدمة الإنسانية.

في تلك الفترة وكان بالتوس في الأربعينات من عمره، ظهرت فرق غنائية كثيرة تسمي نفسها بمسميات مستمدة من كلمة قط.. قطط.. مثل فرقة "ملك القطط".. "قط في الريف".. "قطط برية" .. "القط المقدس"... كانت ظاهرة ألهبت حماس الكثيرين ليعيدوا التفكير في أهمية هذه

الكائنات الصغيرة وإمكانية أن تلعب دورا في مستقبل الكرة الأرضية.. وكان الأمر يبدو لو نظر إليه بشكل جاد كما لو أنه تهويمات أو صرعة سرعان ما ستنتهي.. وهو ما حدث فعلا.. لأنه بمجرد أن دخلت فرنسا السبعينات لم يعد أحد يتذكر كل تلك الفرق، حتى الذين أحبوا هذه الفرق الغنائية وعشقوها من شريحة الشباب، سرعان ما بدأوا في الشك، هل كان ذلك حقيقة أم حلم، وقد كان بالتوس نفسه أسير هذه الصرعة، لكنه كان يعرف ما لا يعرفه الآخرون أنه السبب وراء ما جرى، والواقع أنه لو صرّح بهذا الشيء لوسائل الإعلام لقالوا إنه مدع وكذاب.

وكان بالتوس أيضا قادرا على التمييز الجيد، لاسيما في قضية هؤلاء الأكاديميين المنتفعين، ويتذكر جيدا ذلك الاحتيال الذي تعرض له عندما تمت دعوته ذات ليلة ليقدم محاضرة في السوربون عن لوحاته وتجربته بشكل عام. ولنا أن نتخيل المشهد، ففي ذلك المساء تعرض بالتوس لإهانات لا يعلم بها إلا الله. كان قد وقف في المدرج يحمل الميكروفون وهو يقول للطلاب "مساء الخير" ووراءه جلست نسخة للوحة "ملك القطط" والتي رسمها في سن مبكرة ومكتوب تحتها اسمها.

وقبل أن يسمع أي رد على تحيته، كان هتاف قوي قد انطلق من وسط المدرجات، "السارق.. اللص.. المأفون.. الغريب... " وغيرها من مفردات بذئية يصعب على إنسان محترم أن يتفوه بها. وبالطبع كان بالتوس يكلم نفسه: "لا يمكن لمكان مثل هذا أن يخرّج أجيالا قادرة على إعادة قراءة العالم أو تفكيكه بحيث يكون أفضل مما هو عليه".

تعامل بالتوس مع المشهد على أنه كوميديا وأن الذين يصرخون بصوت مرتفع هم صبيان صيع من نسيج ما يمكن أن ينتجه بلد ينحدر للهاوية كفرنسا، ولم تمض دقائق حتى ارتفع الهتاف.. واقتحمت مجموعة من الطلاب المسرح بآلات موسيقية وطبل، وبدأوا في الغناء على طريقة فرقة "ملك القطط" لكنهم شوهوا أول مقطع من الأغنية الأولى، والتي تحمل شعار الفرقة المشهورة، وهي الأغنية التي تتخذها الفرقة شعارا لها.. وتحمل اسم الفرقة.. أي "ملك القطط". وسرعان ما تحول تلك الليلة إلى جحيم في حياة بالتوس بعد أن أسرع بعضهم إلى ضربه بأحزمتهم وهم يفكونها من بنطاليهم بشكل هيستيري غير متصور، وكانت رائحة الخمر تفوح بما لا يصدق في قاعة الدرس.

كان بالتوس يطارد نفسه إلى أن اختبئ في أحد الحمامات الخارجية التي تجاور سكن عمال النظافة، ومن هناك قفز بعد نصف ساعة من النافذة ليقرر بعدها إلا يدخل هذا المكان مرة أخرى حتى لو أن جنة الخلد أقيمت عنده.

ولكن إلى هنا لا يتضح أي احتيال، فكيف فكر بالتوس في ما جرى على أنه كذلك.. في الواقع لم يكن الأمر واضحا بالنسبة له، حتى صباح اليوم الثاني وهو يطالع الصحف، ليرى صورته وهو يحاول تجنب ضرب الأحزمة. كانت الصور الفضيحة قد عبأت الصحف، لاسيما جرائد التابلويد التي لا هم لها سوى الإثارة وبلبلة مشاعر الناس.

كانت أخبار الليلة مكتوبة بطرق مختلفة، لكن خبرا وحيدا هو الذي جذب انتباه بالتوس، حيث ذكر محرره أنه تلقى معلومات من مصدر مسؤول بالجامعة رفض التصريح باسمه تفيد أن سماسرة يعملون في مزادات الفنون واللوحات أردوا التجريح ببالتوس وأنه سارق أفكار.. وقد

بدا الأمر جليا من تلك اللوحة الكبيرة التي علقت في الخلفية "ملك القطط" ومن متواليات ما جرى، أن يُقدِّم هؤلاء الطلاب أغنيات فرقة "ملك القطط" في إشارة لا تحتمل التأويل أن بالتوس يسرق أفكاره وعلى الملأ، ولم يتركوا له الفرصة ليتكلم أو يدافع عن نفسه، ليقول لهم "متى رسمت لوحة ملك القطط". لا أحد يريد أن يسمع وقد كان الطلاب معبئين تماما من الأساتذة المنتفعين.

كان التفسير واضحا بالنسبة لبالتوس، ولأنه لم يكن يهتم بالجانب التجاري كثيرا، فقد تناسى الأمر، لكنه فهم أن صيته الذائع في تلك الأيام، وتهديده للفنانين الفرنسيين في السوق، ومزادات الفن كان سببا مشروعا للانتقام منه بهذه المسرحية السيئة الإخراج، والتي شارك فيها الطلاب ككومبارس نجحوا في أداء دور الأبطال. وهكذا يتم تفريخ مئات الطلاب الذين يظنون أنهم يحملون معرفة للعالم أو جديدا أو أنهم قادرون على التفكير وهم في الواقع يؤدون أدوار "كومبارس" سيئة الإخراج. "يا لسخف الحضارة"، لم يكن أمامه سوى ترديد هذه العبارة، وهو يطوي الصحيفة ويرمي بها بعيدا في سلة القمامة، قبل أن يشعل غليونه، متأملا الدخان مرتفعا في نهار شتاء بارد.

كان المذياع بجواره يبث الأغنية نفسها التي كانت نكدا عليه ليل أمس.. "أغنية ملك القطط".. وكان المذيع قد قدم الأغنية بقوله: "هناك من يظنون أنهم عباقرة.. وأنهم يملكون الكون.. وهم بشر طبعا.. لكن دعونا نسمع ماذا يقول ملك القطط في هذا الشأن".

ولم يسمع بالتوس باقي تقديم المذيع، فقد كانت الرسالة واضحة، أن الحرب النفعية لم تنته هناك في قاعة الدرس، بل امتدت إلى المذياع والله أعلم أين ستصل، وقرر رغم كل ذلك أن ينسى.. فالمستقبل وحده كفيل بأن يقرر من يكون الفائز، عزى نفسه بهذه الكلمات، واستمع للأغنية بكل هدوء والدخان يتصاعد:

"لو أنني ولدت في أي كوكب آخر

لكنت ملكا بحق

ولكن هنا في هذه الأرض الملعونة

حيث يسكن البشر

لا مجال لي كي أتمتع بالملذات

فكل ما أحلم به، وما أحبه،

وكل ما أراه جميلا ويكسبني الطمأنينة

يسرعون إلى قطفه قبل أن يثمر،

هم لا يتمتعون به ولا أنا

فبأي شريعة يؤمنون،

إنهم مجرمون هؤلاء القساة،

لكنني رغم أنفهم ملك.. ملك.."

-6-

حفظ جيل الستينات خاصة الشباب والمراهقون أغنية "ملك القطط" عن ظهر قلب، وقلة منهم كانت تعلم أن بالتوس هو الذي قال بهذا الاسم قبل سنوات من ظهور الفرقة التي حملته ونشرت هذه الأغنية التي كان يرى فيها جيل جديد على أنها عنوان للفتوة والافتخار باسم فرنسا، فقد روجت مجلات "سمجة" بمنظور بالتوس، لهذه "التفاهات" وعلى رأسها مجلة "تان تان" التي كانت تخاطب المراهقين والتي كانت تقدم قصصا مرسومة، اعتمد أغلبها في تلك الفترة على استيحاء تلك الأغنية وعكسها على أنها صورة فرنسا في مقابل بقية العالم، ففرنسا هي القط، الملك الحقيقي، وباقي الشعوب هي الشر، هم البشر الباحثون عن الملذات والترهات، والفرنسيون هم الباحثون عن الحقيقة.

فالمقطع الأخير من الأغنية يقول:

"مهما فعلوا وأدعوا واستمتعوا

فإنني سوف أنتصر عليهم

هم لا يعلمون من علمهم الحرية

ومن قال لهم كونوا سواسية

إنه القط الذكي .. الملك العبقري"

لم يتوقف هوس القطط في الستينات على الشباب وصغار السن، بل شمل الكبار أيضا، لا نعني هؤلاء الأكاديميين النفعيين لأنهم كانوا لا يحترمون أنفسهم، حتى يحترمون القطط أو يحبون فرنسا، فهم لا يحبون بمنظور بالتوس سوى المال والشهرة الجوفاء. المعنيون هم السياسيون، فقد كانت السياسة وما زالت تستقي من الهوس العام للناس، وتحاول أن تقولبه لصالحها. وفي تلك الفترة يتذكر بالتوس جيدا، كيف أن شارل ديغول الذي حكم فرنسا طوال عقد الستينات ساهم إلى حد بعيد في سيادة روح العداء لكل ما هو إنساني، وحوّل فرنسا إلى بلد مغلق على نفسه. لم تكن نتائج ما فعله واضحة وقتذاك ولكن بعد عقدين فقط كانت فرنسا المتعجرفة قد فقدت إيمانها بالحريات والقيم وإحترام الآخر.

كان الفرنسيون ينظرون إلى ديغول على أنه الأب الروحي لما يسمى بـ "الجمهورية الفرنسية الخامسة" التي بدأت مع توليه الحكم في 8 يناير 1959، وظل يحكم إلى 28 أبريل 1969 وتوفي بعدها بسنة في 1970. وقطعا كان الرجل مثار احترام وتقدير عندما يتعلق الأمر بكونه ذلك الجنرال الذي حرر فرنسا من الجيوش النازية أثناء الحرب العالمية الثانية، لكن عندما تولى حكم البلاد كان سيئا للغاية، بالغ السوء، لقد دمر أي مستقبل كان ينتظر بلده.

كان ديغول يطلق الشعارات من لندن وأشهرها: "أيها الفرنسيون لقد خسرنا معركة لكننا لم نخسر الحرب وسوف نناضل حتى نحرر بلدنا الحبيب من نير الاحتلال الجاثم على صدره".. ونجح بشعاراته وبحماسه وبطولته في إلهاب قلوب أبناء شعبه، بما فيهم المنتمين لفرنسا أمثال بالتوس، لا أحد كان يكره فرنسا وقتها وهو يعيش على أرضها الا أن يكون جاسوسا أو غبيا.
لكن ماذا حدث بعدها؟ لقد بدأت الكراهية تسري كالنار في الهشيم، وكان الجنرال البطل نفسه، السبب في ما وصل إليه الحال من سوء.

عندما تزور فرنسا وإذا كنت تعيش فيها سوف ترى إلى أي حد ينظر الفرنسيون إلى ديغول كما لو أنه كائن مقدس... نصف إله.. ملك القطط.. فكثير من المرافق الحيوية تحمل اسمه، وكذلك الشوارع.. ومحطات القطارات.. وأوضح مثال مطار ديغول الدولي، بوابة باريس وفرنسا إلى العالم. لكن قلة تقف بشجاعة لتتحدى هذا الزيف، وتقول: كفى!!

أحد الأصدقاء الجزائريين ممن يعيشون في فرنسا على أنهم من مواطنيها روي لي أنه يشعر بالخزي أن يكون فرنسيا، لكن ماذا سيفعل إذا كانت بلده لا تمنحه الحرية ولا الإحساس بالحياة.. هذا الصديق مرهف وحساس إلى حد بعيد ويفهم في الفن، وفي الفلسفة وفي كل شيء تقريبا، لكن مصيبته أنه ظل مضطهدا، ومثار سخرية، لأن اسمه "ديغول".. فحتى أقرب أصدقائه من الفرنسيين الأصليين كانوا يهمسون أنه لا يستحق ان يأخذ صفة الجنرال الشجاع.. وايضا كيف لنا أن نتخيل ان عربيا مسلما اسمه ديغول.. ديغول المناور والمخادع الذي أقلق حياة الجزائريين ذات يوم.

قصته طويلة.. ووالده كان تاجرا، منتفعا، كان أكاديميا أيضا ودافع عن مشروع فرنسا الاستيطاني في الجزائر ومات غير مأسوف عليه بشهادة ابنه عندما تلقى رصاصة على صدره من عقيد فرنسي دخل إليه في مكتبه بالجامعة وقال له: "توقف عند حدود أدبك.. فرنسا لا تحتاج للمزيد من المنافقين أمثالك". لم أتعرف كثيرا على خطوط القصة وملابساتها.. وظل الابن "ديغول".. وقد كان بإمكانه أن يغير اسمه، لكنه خاف.. لا أحد يغامر في فرنسا حتى اليوم ليجهر أنه لا يريد أن يصبح ديغولا..

كان ديغول قد جاء لإنقاذ وضع متعفن وبعد أن ابتعد عن الحياة السياسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية عاد إليها برغبة من رأوا فيه البطل المنقذ، وبعيدا عن التفاصيل التي توفرها مراجع التاريخ، فإن الرجل أسس دستور الجمهورية الخامسة، التي بدأ معها انهيار مشروع فرنسا الحديثة. وقد اختلف الباحثون في تقييم الرجل وسياساته لاسيما اتجاه القضية الجزائرية، مهما يكن فإن الجانب المذكور هنا دائما بالنسبة لبالتوس أن ديغول استخدم 42 ألف جزائري "كفئران تجارب" وهم من السكان المحليين وأسرى جيش التحرير وهذا يمثل أقصى صور الإبادة الهمجية. ويرى بالتوس أن ما يفسر قيام فرنسا بهاتين التجربتين هو إصرار ديغول على أن تصبح فرنسا القوة النووية الرابعة في العالم خلال هده الفترة.

بمعتركاته المتعددة وتحدياته لإنقاذ فرنسا من جملة تورطات جعلت منها أبشع من النازيين الذين حاربتهم ذات يوم وطردتهم من أرضها.. مع كل ذلك كان ديغول يظن أنه "ملك القطط" وكان تلك الأغنية الشبابية المفضلة بالنسبة له، ولم يكن يخفي ذلك الأمر، فعندما التقاه صحفي شاب وأجرى معه حوارا في منتصف الستينات بدلا من يسأله عن القضايا السياسية الكبرى أو

محاولة الاغتيال التي جرت له في مطلع أيام حكمه بسبب ثوار الجزائر والتي ما زال البعض في حيرة حول أسبابها الحقيقية، بدلا عن ذلك سأله أي أغنية يحب أن يسمع، وماذا يأكل في وجبة الإفطار، فرد على السؤال الثاني بأنه لا يحب البيض. أما السؤال الأول فكانت الإجابة التي كان يبحث عنها الصحفي والتي فضل أن يختار منها عنوان الموضوع الصحفي.. "ديغول عاشق القطط".

كان شيئا مثيرا.. أن تتحول فرنسا لأضحوكة، دون أن تدري بذلك.. فالكثيرون كانوا يضحكون في صمت.. وكثيرون هنا لا تعني المئات..لانه ساعة يتعلق الأمر بالضحك الناتج عن المعرفة، فكثيرون تعني بضع عشرات.. منهم بالتوس طبعا.

ولا تنتهي القصة هنا.. لأن ديغول الذي لم يرغب أن يفصّل بخصوص وجبة الإفطار، وأعطى إجابة معممة وغامضة "إنه لا يحب البيض".. ولم يقل ماذا يأكل بالضبط.. كان قد شرع في تفصيل غرامه بالقطط..

كان بالتوس يقرأ الحوار، دون أن يحدد مشاعره، كان ضجرا كما أتخيله.. وأيضا أخذت الصحيفة طريقها إلى سلة القمامة.. "فالصحف لا تكتب سوى التفاهات".. هذه هي نظرية بالتوس ونظرته عن الصحافة المكتوبة.. "إنها تشويه لحقائق الحياة.. ولا تخرّج سوى المزيد من الجهلة والأغبياء لفرنسا".

قال ديغول: "من يدخل بيتي سوف يرى أنني احتفظ بأسطوانة في الصالة الرئيسية لفرقة ملك القطط، غالبا ما أشغلها وأنا استعد في الصباح للذهاب إلى مكتبي.. هؤلاء الشباب رائعون جدا.. إنهم يذكرونني بعظمة فرنسا.. صحيح أن زمن الملوك قد انتهى إلى الأبد.. لكن أمثال هؤلاء الصغار الرائعين هم فخر لنا.. ولي أن أقول أنهم يشعرونني بالفخر لأنهم يقدّرون ويبجلون من يعيشون معهم في الأرض، من مخلوقات.. أليست القطط تستحق التقدير؟.. ألا ترى أنها لطيفة"

يتخيل بالتوس أن الصحفي ابتسم وعدل نظارته الكبيرة، كما تبدو في الصورة المصاحبة للحوار، ابتسم كمن حقق فتحا عظيما؛ لكنه لا يتخيل أبدا أن ديغول كان صادقا فيما قال.

-7-

كان نيرون عجولا للقاء بالتوس حتى يتعلم منه فن الشعر، بناء على نظرته بأن الرسام شاعر في النهاية، خاصة للذين أمثال بالتوس.. لكن نيرون لم يكن يدرك أن الفرص أحيانا تأتي على طبق من ذهب وتأتي إلى المرء في مكانه دون أن يتحرك إليها أو يسعى لها.. لم يكن يؤمن بذلك لأن حياته كانت صعبة جدا، لقد عانى الويلات حتى تخصص في الطب البيطري وأصبح طبيبا مرموقا في باريس.. لكن أزمته أنه يريد أن يكون شاعرا.. حلم قديم امتد منذ الطفولة.. وقد نصحه معلمه في المدرسة الثانوية بأن ينسى أمر الشعر ساعة أسمعه قصيدة في المكتب وهو يصحح له كراسة اللغة الفرنسية. قال له المعلم: "نسخك رائع.. لكن تركيبك للجمل فيه الكثير من الأخطاء".

لاحقا فهم أن الأخطاء في الإملاء أو في النحو ليست هي المشكلة التي ستقف أمامه كشاعر، لأن كثيرا من الشعراء يستعينون بمصححي اللغة بعد أن يكتبوا قصائدهم. هذا الاكتشاف جعله أكثر ثقة بنفسه أنه سيصبح شاعر فرنسا العظيم ذات يوم. لكن يبدو أن هذه الثقة كانت في غير محلها لاسيما بعد أن بدأت ضحكات الأصدقاء في النادي ترن في أذنيه، فهاهو يسمعها الآن وكأنما كانوا هنا في غرفته بالعيادة ولم يغادروها إلا قبل ثوان. يخال له أنه يسمع خبط خطواتهم في الممر يختلط مع تذمر بعض الزبائن المنتظرين بالخارج ومواء القطط ونباح الكلاب المريضة وحمار وحيد ولد قبل ثلاثة أيام بعاهة يظن صاحبه أنه ممكن شفاؤها بعملية جراحية.

لم يكن يظن أن الحظ أمامه متمثلا في حكمة صغيرة سوف يخبره بها هذا الزبون الذي لم يظن فيه خيرا منذ أن دخل عليه، وهو يبرم شاربه بصعوبة متحملا مع جسمه الثقيل، الكلب الذي لم يعد قادرا على النباح والقط الأعور الذي كانت عيناه تدميان. هذه اللوحة "البالتوسية" كما تخيلها نيرون سرعان ما تحولت إلى ذلك الطبق الذهبي الذي كان ينتظره منذ سنوات.

سجل بيانات الزبون.. فالزبون هنا أهم من المريض الذي لا يعرف أن ينطق اسمه.. وسجل اسم الكلب.. "ميمي".. واسم القط "شارل".. وهو يخبر نفسه "ياللعنة!!".. ماذا لو سمع ديغول بذلك؟ لا أحد يتجرأ على الجنرال في تلك الأيام..

نيرون هو الآخر قرأ مثل كثيرين ومثل بالتوس، حوار شارل ديغول، وفهم كم هذا الزعيم إنساني وحيواني أيضا، خاصة وهو لا يخجل أن يتحدث عن عشقه للقطط.. لكن ماذا لو أن قطا سمي باسمه "شارل".. وقبل أن يفكر كثيرا قال نيرون لنفسه: "ستكون مشكلة لو أن شارل هو الكلب". ومن جديد أخبر نفسه سرا: "يا لك من مغفل يا نيرون"، العبارة التي درج على ينعت بها ذاته كلما مر بموقف اكتشف فيه أنه غبي. مع علمه التام أن الشعراء يجب أن يتمتعوا بذكاء حاد.. فالغبي لا يصلح بأية حال من الأحوال أن يكون شاعرا.

سجّل رقم الهاتف الثابت لمنزل الزبون، ومن ثم مهنته كإجراء روتيني..

قال الرجل ضخم الجثة: "ممثل"

كاد نيرون أن يضحك وهو يرى ممثلا أمامه بهذا الشكل السوريالي. وأخذه الفضول فسأل الرجل الذي يراه في عيادته لأول مرة:

"ماذا ممثل..!!"

أدرك أن هذه الـ "ماذا" لم تكن جيدة، فقد شعر بالحرج في وجه الرجل، خاصة في عينيه المحمرتين. فأسرع للاعتذار:

"أقصد أين تمثل؟.. في المسرح أم في التلفزيون.."

قاطعه الزبون وهو يضع القط الدامي على الطاولة حيث أشار له نيرون:

"مسيو .. أنا ممثل في المسرح"

"آهـ.. في المسرح، إذن جميل"

لا غبار أن يكذب نيرون أحيانا، حتى يظهر على أنه طبيب مثقف، أضاف:

"المسرح... إنه عمل رائع.. أظن أنني شاهدت لك مسرحية"

بدا الاستغراب على الرجل، وهو يرد بغضب:

"أي مسرحية !.. يا دكتور أظن أنه من المناسب أن لا نضيع الوقت.. هذان المسكينان يجب أن يعالجا"

انتهى نيرون من معاينة القط أولا وتضميد جرحه ومن ثم الكلب وقرر العلاج المناسب، وأنهى عمله بالتوقيع على روشتة الدواء، قدمها إلى الرجل مخبرا إياه بأنه يمكن صرفها من الصيدلة الواقعة على الشارع الخلفي وراء العيادة، وأضاف معلومة دائما ما يراها الزبائن غير مهمة بالنسبة لهم:

"مكتوب على اللافتة.. صيدلية ريكله.. إنها لي أيضا.. ياه لقد أنفقت الكثير من المال لكي ..."

لم يدعه الرجل يكمل، حمل القط والكلب، وقبل أن يغادر الباب، نظر إلى نيرون قائلا:

"لماذا لا تجرب ان تكتب الشعر؟"

كان السؤال مدهشا بالنسبة لنيرون، لم يتوقعه أولا، وثانيا شك إن كان الزبون على اطلاع بمحاولاته الفاشلة في كتابة الشعر.. ولم يفكر طويلا لأن الرجل أسرع قائلا:

"لا تندهش كثيرا.. أصدقاؤك أخبروني.. لا أحد في باريس يعرف نيرون البيطري المشهور إلا ويعرف أنه شاعر فاشل"

كانت الكلمة الأخيرة قوية، لم يتحمل نيرون صدمتها.. وتمتم "أوَصلَ بهم السوء إلى هذه الدرجة من قلة الأدب"..

وسمع الزبون يقول مجددا:

"لا تظن أنني أسخر منك.. عندما قلت لك جرّب كتابة الشعر.. أنت شاعر فعلا.. لكنك لم تكتشف الطريق الصحيح.. قل لي ماذا يفعل رجل مثلي عندما يمرض كلبه!"

"يذهب به إلى نيرون.. إلى أي مخبول مثلي"

"لطفا كن هادئا مسيو نيرون.. الهدوء أول شيم الشعراء الكبار.. لكن ليس هذا هو السر.. أنت لم تعرف الدواء المناسب لمرضك.. أنت مريض فعلا.. مرضك أنك تريد أن تصبح شاعرا.. هل تسمح لي بأن أكون نيرون الطبيب لكي أمنحك الشفاء؟"

رد نيرون بغضب: "هل تظنني حيوان؟"

ابتسم الرجل ابتسامة صغيرة وهو يعود من جديد لداخل الغرفة بعد أن كاد يصل الباب، قال:

"عذرا .. أكرر لك أنني لا أمزح أو أسخر منك.. وعلى كل حال سأتبرع لأمنحك السر.. فأنت فعلا قط مزعج"

قال نيرون في سره: "قط وليس كلب!. . جميل!!"

تناول الرجل القلم المرمي على الطاولة وكتب بصعوبة على ورقة أمامه، فقد كان ممسكا بالمريضين، يمينا ويسارا تحت أبطيه..

"القطط... القطط" كتبها مرتين.

في البداية لم يفهم نيرون.. لكن عندما بدأ الرجل يغني بصوت مميز.. الأغنية التي لا أحد يجهلها في فرنسا... على الأقل في باريس.. فهم الطبيب.. فهم السر.. وارتفع صوته يقول: "يا لك من مغفل يا نيرون"..

وخرج الممثل المسرحي الضخم دون أن يتأكد نيرون ما هي طبيعة عمله بالضبط، فقد أصابته لهفة كبيرة لأن يبدأ الآن في كتابة أول قصيدة ستصنع له النجاح في حياته الجديدة كشاعر حقيقي.

قال سرا وهو يخبر الزبائن في الصالة أنه يعتذر لهم جميعا لأمر طارئ، وأنه لن يستقبل زبونا إلا في اليوم التالي: "كيف لم استوعب ولو لمرة واحدة أن ريلكه كان يحب القطط!!".

أضاف: "الكنز أمامك وأنت لا تبصره"

وتخيل أن هذا المقطع سيكون جيدا لبداية القصيدة مع إبدال كلمة "الكنز" بـ "القط"..

كانت رائحة الجوافة ما تزال في المكان.

-8-

قبل 7000 ألف سنة دجّن الإنسان القطط، فبعد أن كانت ترعى بعيدا عنهم وكانت متوحشة إلى حد ما، إلا إن الكائن البشري استطاع أن يوجد صداقة معها ويدخلها إلى القصور والبيوت والحدائق المنزلية، ليبدأ تاريخ جديد لهذا الحيوان.. تاريخ مشغول بالغموض والغرابة وإلى حد ما القداسة.

ويشير العلماء إلى أن القطط كانت تعيش في أجواء صحراوية، وأنها ظلت إلى اليوم تحمل ذلك الميول القديم إلى الصحارى حيث عاش الأجداد وقبل أن تتوزع ذرية القطط في كوكب الأرض. وما يدل على ذلك العشق القديم أن هذه الحيوانات التي باتت أليفة وعاشت داخل المساكن المعروشة وباتت تشرب الحليب المثلج، ما زالت تحب حرارة الشمس وغالبا ما تنام في أماكن معرضة لضوئها والحرارة أثناء النهار، فهي قليلا ما تحب الظلال. وهذا السبب بالتحديد دفع بالتوس إلى أن يجعل لوحاته الفنية وهي تحتضن القطط تتجرد من الظلال. فكان نادرا ما يستخدم مجسمات لها ظل في اللوحة، حتى القطط نفسها تظهر في اللوحات وهي تتثاءب دون أن يكون لها ظل.

الجانب المثير الثاني في لوحات بالتوس وقد لاحظه مختصون، أيضا عامة الناس وربما أنا منهم!، أن بعض القطط تظهر دون ذنب. ويبدو ذلك مثيرا لأن أي قط له ذنب. لكن الواقع غير ذلك. ليس كل قط له ذنب. فهناك أنواع من القطط عديمة الذيل لتشوه خلقي تمّ في فترات مبكرة من التاريخ ولم يكشف لنا علم الأحياء فحوى ما حدث بالضبط.

لم يكن بالتوس مجرد فنان عادي، يعتمد على الحدس والتخيل، بل كان عالما ضليعا في شؤون التاريخ والأحياء والعلوم بشكل عام، لاسيما عندما يتعلق الأمر بما يقوم به من عمل. ففي أحد المرات فاجئ محاوره في التلفزيون الفرنسي بقوله: "يجب أن تعرف أنني قبل أن أرسم أراجع عشرات المراجع في الأحياء والطب والكيمياء.. فاللوحة عندي متعلقة بفضاء متكامل من المعرفة الإنسانية".

ويمضي بالتوس قائلا: "عندما رسمت لوحة (ملك القطط) كنت قد قرأت ما يقارب عشرة آلاف كتاب في أمور مختلفة.. قد لا يصدق البعض ذلك ويعتبرونني مفتر، لكنه الواقع.. فالفن الحديث أصبح محصلة ومرآة لخلاصات التجارب الإنسانية في العلوم.. الفن لم يعد مجرد فنان يمسح بالريشة ويخبط بها على اللوحة.. أو شاعر يمسك بالقلم ويظن أنه سيكتب أروع قصيدة.. هذا السلوك يمكن أن تفعله القردة فأي قرد يمكن أن يرسم لوحة متفردة إذا قدمت له الريشة والألوان".

كان يشير ساخرا إلى موضة انتشرت في ثلاثينات القرن الماضي عندما بدأ مهووسون يستخدمون القرود لأهداف فنية، تجارية، وكان أول معرض تجاري أقيم بهذا الخصوص في مدينة بال السويسرية، ومن حسن الحظ أن بالتوس كان قد شهد ذلك المعرض في زيارة مبكرة لسويسرا، وظل المعرض بذاكرته، فأحال محاوره التلفزيوني إلى تلك اللحظة التاريخية ساخرا منها بشدة ومقرِّعا من أقدموا على الفكرة.

قال: "أنا لست ضد أن يرسم القط لوحة.. أو القرد.. أو أي حيوان.. لكن دعوه يرسم لوحته في الوقت المناسب وعندما يتمكن من ذلك فعلا.. أما أن تتم المسألة بإملاءات بشرية فهذا في تقديري مقرف ويسيء للحيوانات.. وقبلها لنا نحن البشر المدعين".

لكن المفارقة أن بالتوس نفسه الذي كان يقول هذا الكلام وعلى الملأ - قبل أن يصبح التلفزيون ملونا - عاد ليقيم معرضا للوحات شاركت فيها القطط، وبعضها رسمته القطط بشكل كامل وفق ما صرّح - هو - للصحافة. كان ذلك في ربيع 1982 ووقتها لم يتذكر أحد ذلك الحوار القديم، أما بالتوس فقد كان يتذكر تماما ما قاله، ولم يكن منزعجا إذا ما فاجئه أي سائل حول الأمر. كانت إجابته جاهزة، فهو يعتقد أن حياة الإنسان ليست فكرة واحدة مستقيمة أو مذهب لا نكوص عنه، فالإنسان هو أكثر الكائنات تقلبا في المبادئ والأفكار، حتى لو حاول إقناع نفسه بأنه لم يتغير أبدا.

في ذلك الحوار الذي عرضت فيه الهرر الملونة بالأسود والأبيض كان بالتوس قد تحدث كثيرا عن تاريخ القطط وكيف استطاع الإنسان أن يكسب ودها ويمتعها بالتقديس.. وبدأ كما لو أنه عالم متخصص في هذا المجال، حتى أن أشهر عالم فرنسي في هذا المجال وهو الدكتور ميري، ويعرف بهذا الاسم اختصارا، علق على حديث بالتوس بقوله: "أظن أنني تعلمت الكثير منه".

لاحقا صدر للدكتور ميري كتابه المشهور "المجهول في البيت" والذي يروي فيه قصة الإنسان والقط منذ القدم إلى العصر الحديث، وفيه استشهد بمقاطع من كلام بالتوس في ذلك الحوار التلفزيوني، لاسيما العبارة التي رددها الفنان كثيرا: "إنه أكثر الحيوانات الأليفة وحشية.. وفي الوقت نفسه أكثر الحيوانات الوحشية ألفة".

كان تخصص ميري في علم الحيوان، وبدرجة كبيرة كانت مؤلفاته صعبة الفهم أو بالأحرى لا يستسيغها عامة الناس، لكن كتاب "المجهول" كان قد نال شعبية غير عادية، ولا يكاد بيت فرنسي يخلو منه، فهو كما وصفه شارل ديغول مرة "بايبل صغير"، أي "إنجيل". وكانت هذه العبارة كافية لكي يسارع الذين لم يطلعوا على الكتاب أو يقتنونه، إلى شرائه من المكتبات وطبعت منه طبعات شعبية وزعت بأسعار زهيدة، وقبل أن يغادر ديغول السلطة كان قد أصدر توصية بأن يوزع الكتاب بالمجان على المكتبات المدرسية في عموم فرنسا، لكن التوصية لم تجد طريقها إلى التنفيذ، لأن مغادرة شارل للحكم بنهاية عقد الستينات كانت قد شهدت تطورات دراماتيكية بخصوص هذه الموجة من الهوس المتعلق بالقطط.

-9-

في مقدمة كتاب "المجهول" يكتب الدكتور ميري عبارات رومانسية، تدغدغ عواطف العامة وتهز قلوبهم بحسب وصف بالتوس، الذي يرى أن ميري كان ذكيا في هذه المقدمة بالذات وفي مجمل الكتاب لأنه عرف كيف يوظف أشعار الشاعر الفرنسي شارل بودلير (1821-1867) بشكل ذكي وغير مباشر. حيث "تأتى لعالم متخصص في علم الحيوان أن ينزع عنه عباءة الأكاديمي المتعجرف النفعي لكي يصنع شيئا خالصا فيه محبة للخير وللناس. وهو ما فشل فيه علماء السوربون المتشدقون بالفلسفة والذين يظنون أنهم يمتلكون ناصية الحكمة أكثر من غيرهم"، هذه العبارات التي قالها بالتوس أمام الملأ في مناسبة احتفاله بعيد ميلاده السبعين، سيستحضرها الكثير من الباحثين ليثبتوا أن الشعر ضروري جدا في كل مجال، فإذا لم يكن الطبيب أو المهندس أو المحامي أو حتى الحمّال في الميناء يتمتع بالنفث الشاعري فإنه لا ينجز عمله بشكل جيد.

أما لماذا اختار الدكتور ميرى بودلير دون غيره ليتخفى بظله في كتابه عن تاريخ القط وعلاقته مع الإنسان عبر العصور، فقد كانت الإجابة واضحة لكل مطلع على الشعر الفرنسي وأدب الحداثة، فشارل بودلير هو صاحب القصيدة المعروفة باسم "القطط" والتي نالت صيتا قويا، وبلغ عدد النقاد الذين قدموا تحليلا عميقا لها أربعين ناقدا ومحللا منذ ظهورها لأول مرة عام 1848 وإلى يومنا هذا.. من كتبوا عنها لا يعدون في الواقع.. لكن الأربعين هؤلاء قدموا قراءات معمقة ليست بالضرورة هي مجلدات ضخمة.

كانت قصيدة "القطط" قد ألهمت بالتوس كما ذكرت سابقا، لكن الأثر القوي في فنه يرجع إلى ريلكه وليس إلى بودلير، ربما لأن بالتوس كان يعتقد أن فرنسا لن تكون وطنه أبدا، ولن يحتفي بها إلى الأبد. كان هذا الشعور عنده لا يقاوم حتى لو أنه لم يكن مجهورا به، ولهذا السبب كان قد أحب ريلكه، حتى لو أن البعض رأى أن الشاعر الألماني استمد حبه للقطط من سلفه بودلير، وقد ولد ريلكه بعد ثماني سنوات من وفاة شارل بودلير.

ولنا أن نتخيل أن الهوس الفرنسي بالقطط، في ستينات القرن الماضي كان منبعه منذ بودلير، أما بالتوس فهو الذي حرك الجمود لكي تنشغل فرنسا أجمعها وربما العالم كله بهذه الكائنات وتعمل على إدخالها في تفاصيل الحياة المختلفة من سياسة لفنون لدراما لكارتون... الخ.. وفي هذا الإطار يلاحظ بالتوس أن ميري في كتابه "المجهول" حتى لو أنه استعان بالحوار التلفزيوني المشار إليه إلا أنه يغفل ذكر بالتوس بشكل مباشر على أنه رائد ابتداع إثارة القطط كرمز كبير في الحياة الإنسانية المعاصرة. أيضا يتذاكى على القراء من العامة في الإشارة المباشرة إلى أنه استفاد من شعر بودلير وقصيدته "القطط" الأكثر شهرة.

هذا النوع من التذاكي "المكشوف" يمارسه الكثيرون، بهدف أن يبدون كما لو أنهم صناع لأشياء لم تنتج من قبل، لكن ثمة من يتابع ويكتشف ويعرف، لكن بالتوس لم يكن مشغولا بإن يثير الفضائح كثيرا. لكنه خرج عن طوره عندما أصدر عالم الأنثروبولوجيا الفرنسي المعروف "كلود ليفي شتراوس" (1908- 2009) كتابه المشهور "حكاية القط البريّ" في عام 1991، والذي رصد فيه غباء الغرب في النظر المتعمق لحضارة أمريكا القديمة، حيث دمرها وعجز عن فهم دلالات التنوع فيها وما تكتنزه من عظمة.

ينظر الكثيرون إلى شتراوس على أنه أحدث تجديدا عميقا في فهم البنى التي تعمل عليها المجتمعات وكيف تتشكل خصائصها الاجتماعية والثقافية، بالإضافة إلى أثره في الفكر البنيوي، إلى جانب رولان بارت، وميشال فوكو، ولوي التوسير. لكن قلة هي التي تقارن بينه وبين بالتوس أو الدكتور ميري، وهذا هو الموضوع الذي تناوله بالتوس بعد شهر من صدور كتاب شتراوس المثير للجدل.

في شتاء عام 1991 نشرت مجلة "نوفيل اوبزرفاتور الفرنسية " مقالا مطولا لبالتوس شن فيه هجوما كبيرا على شتراوس ووصفه بالسارق الكبير، وأنه كثيرا ما أخفى الأثر الذي اعتمد عليه، فـ "مهما حشد ليفي شتراوس المضلل من مراجع في كتبه وأحال القارئ إلى كتب تعود إلى ما قبل الميلاد إلى العصر الحديث، إلا أنه يظل مداهنا، لا يذكر بوضوح المراجع التي اعتمد عليها".

ويمضي بالتوس: "بعد أن خفتت صرعة القطط في الستينات يعود شتراوس لاستحضارها في عنوان كتاب، الكل سيقول أنه مبتكر طالما أصبح كاتبا مقدسا، وباحثا مكتشفا، لكنه الأثم الكبير أن يلعب المقدسون بعقول الناس، إنهم لا يلعبون بعقول العامة فحسب، بل أيضا بكبار المثقفين.. ياللعنة الثقافة في عصرنا، وياالأكذوبة الدجالين والمنافقين أمثال شتراوس وذمرته".

ويلعن بالتوس لأول مرة الدكتور ميري، ويمجد نفسه، ويصبّ جم غضبه على شتراوس للدرجة التي يمكن القول عندها أنه لا أحد وصف الباحث الأنثروبولوجيي الكبير بأقذع الألفاظ، كما نعته بالتوس.

كان رد شتراوس بسيط جدا: "أنني لا أهتم بأمثال بالتوس لأنهم غجر، ولأن بالتوس لا يعرف ماذا يقول بالضبط عليه أن يحترم سنه"، كان الرد قد جاء مقتضبا في أحد الندوات التي عقدها شتراوس في نادي الفلاسفة بضاحية من ضواحي باريس، عندما سأله أحد الحضور عن رأيه في شتائم بالتوس، وإن كان قد قرأ المقال بمجلة "نوفيل اوبزرفاتور".

لم يكن شتراوس مصادما في الواقع، مثلما هو مصادم في تخيلاته وكتبه، وكان مؤدبا، وأيضا كان بالتوس مؤدبا أيضا، لكنه كان يعاني من عقدة يصعب التخلص منها، وهو ما علق به السائل بعد أنهى شتراوس الرد على السؤال، قال الرجل وهو يقف من على مقعده وبصوت جهور: "مسيو شتراوس.. بالتوس معقد أنه غجري بالفعل".

كانت تلك المحاضرة وفي هذه اللحظة بالتحديد قد كشفت عمق الأزمة التي وصل إليها بلد كفرنسا، كيف أصبح يصنف الناس بمعايير.. غجري.. غير أصيل.. غير فرنسي.. وهو أمر مؤسف وجد شتراوس يقع فيه دون أن ينتبه. ولهذا كتب صحفي شاب حضر الندوة في اليوم التالي في جريدة غير مرموقة، لا تسعفني الذاكرة باسمها: "بالتوس كان على حق.. فشتروا س صنع مجدا لكنه الآن يكشف بعنصريته البغضاء كم هو نموذج سيء للثقافة الفرنسية، التي تحاول أن تطرح نفسها نموذجا عالميا".

-10-

قام شتراوس في بحث مشترك مع عالم اللغويات الفرنسي "رومان ياكبسون" بدراسة مشتركة حللا فيها قصيدة "القطط" لبودلير، وتعتبر هذه الدراسة مرجعية إلى حد بعيد في تاريخ الأدب الحديث، استعان بها النقاد في فهم بودلير، ومنهم "ميشيل كيسينل" الذي كتب نهاية التسعينات في كتابه الموسوم "بودلير المخفي والواضح" عن كيف نجح شتراوس وياكبسون في إضاءة مركزية القطط في أشعار بودلير، ليس في قصيدته هذه فقط، بل في مجمل تجربته الشعرية.

كان "ميشيل كيسينل" قد تورط دون أن يعلم، في خدعة كبيرة صنعها شتراوس، وهو يرد بشكل غير مباشر على بالتوس، حيث كان يخطط لسحب بساط مجد القطط وأثرها في فرنسا الحديثة من تحت أقدام بالتوس ذلك "الغجري عديم الأصل". وكان "ياكبسون" هو الآخر ضحية لشتروا س الذي زجّ به في مهمة لم يكن الأول يعرف كثيرا عن مخططها السري القائم في عقل عالم الأنثروبولوجي المخادع. وقد كان ياكبسون سعيدا بالعمل مع شتروا س، فليس هناك عالم في فرنسا يتصل به شتروا س ويطلب منه العمل معه في مشروع ما، فيرفض ذلك. وهذا ما أوقع ياكبسون في الفخ.

كيسينل هو الآخر كان ضحية فقد صدّق ما جاء في تلك الدراسة، واعتمد عليه كثيرا، "وهو أمر مخجل" كما رأى بالتوس.. "كيف أن المعرفة باتت ألاعيب وتصفية حسابات بشكل غير أخلاقي".

في تلك الدراسة الأولى يشير شتراوس وياكبسون إلى أن القطط تمثل بودلير نفسه، ويكتبان: "إذا كان لبودلير أن يشعر بالفخر فذلك لأنه علم فرنسا احترام القطط.. وتبعه ريلكه وآخرون.. ونشأ جيل شاب على مجده يغني ويصرخ بصوت عال ضد زيف الحضارة".

وما أثار بالتوس بوجه خاص أن الدراسة تعرضت لذكر أناس كثيرين كهوامش لها، لكنها لم تذكره "هو" بخير أم شر.. وكانت قمة الأسى قد تغلغل في نفس الفنان المحبط وهو يقرأ في أحد الهوامش ذكرا لنيرون الطبيب البيطري، الذي أصبح بقدرة قادر واحدا من شعراء الأغنية

المعروفين في فرنسا في أواخر الستينات. صحيح أنه لا أحد يعرفه أو يتذكره اليوم، لكن مجرد المرور على اسمه في دراسة فيها اسم شتراوس هذا يعني أنه سيدخل التاريخ.

كعادته ساعة يشعر بالامتعاض الشديد، رمى بالتوس بالكتاب من الحجم المتوسط الذي نشرت فيه الدراسة في سلة القمامة، وأشعل غليونه في شتاء سويسرا، حيث كان يقضي أيام عمره الأخيرة دون أن يعلم أن الموت قد اقترب، لم يكن يقظا تماما ليكتشف أنه اقترب من التسعين وأن الحياة مجرد حلم عليه أن يستيقظ منه في لحظة ما في عوالم أخرى مجهولة.

سار بخطوات وئيدة في حديقة منزله الكبير بمقاطعة "فود" رابع أكبر مقاطعات سويسرا. كان منزلا عملاقا بني على طراز القرن الثامن عشر في مدينة يتحدث أغلب سكانها اللغة الفرنسية، وهو ما يشعر بالتوس بالضيق أحيانا، لكنه يتذكر إن كان له أن يعيش ساعات طويلة في البيت ويرسم دون حاجة للمفردات واللغة فرنسية كانت أم غيرها، فهو أمر يشعر بالسعادة..

"الجميل أمام أي رسام أنه يتخلص من اللغة تماما"، يخاطب زوجته الثانية اليابانية ستسوكو، والتي قضت معه أيامه الأخيرة وهي تعامله كأم حنون لا تبخل على طفلها العجوز بقدرتها على تحمل خطرفات أخر العمر من رجل عاش مجده ومات وهو يهزأ كمن يحلم.

كانت ستسوكو في انتظار عودة ابنتها هارومي من برلين حيث تشارك في معرض للمجوهرات هناك، وقد كانت مصممة لا بأس بها في هذا المجال، وسافرت للمعرض الأخير وهي تراهن لأول مرة على أفكار العجوز بالتوس الذي أوصاها بأن تصمم تشكيلة من الحلى المعتمدة على أشكال الحيوانات والقطط بوجه خاص لكي تكسب زبائن حقيقيين في المعرض. ورغم أنها لم تفهم ما الذي يعنيه والدها بـ "حقيقيين" إلا أنها لم تشغل بالها كثيرا. كانت عملية إلى حد بعيد. وكانت تعتبر في بعض الأحيان، أحاديثها، مع والدها مجرد تسلية ومتعة، وكثيرا ما أخبرت نفسها أن "بالتوس مهما أوتى من شهرة فهو إنسان ينتمي لقرن قديم وعلى أعتاب قرن مقبل لابد أن تتشكل الحياة بنحو جديد ومختلف.. الجيل الذي يحكي عنه ذلك المهووس بالقطط والحيوانات ربما ينقرض سريعا، أو هو انقرض فعلا". كانت تسمع أحيانا أطراف حوارات تجري بين والدها ووالدتها، تدور في نزاعات وضغائن كسيرة شتروس وفعائله أو نيرون الشاعر الغبي أو ريلكه واعتماده على مخزن بودلير، وغيرها.. غير أنها نادرا ما تأخذ هذه الحوارات على محمل الجد أو تهتم بخلاصاتها. ليقينها التام بأن هناك شيء مختلف في الأفق وهو ما لا يفهمه بالتوس ولا ستسوكو. لكن اعتقادها هذا تغير فيما بعد.

قالت ستسوكو ذات النيف وخمسين سنة لزوجها المتوكئ على عصاه، دون أن تهتم بكلامه حول الفن واللغة: " لقد اشتقت كثيرا لهارومي"، كانت مشغولة بابنتها كثيرا ولم يكن دماغها متفرغا لتلك الأحاديث التي كثيرا ما استهلكت الوقت في سنوات غابرة.

رد بالتوس: "آه.. هارومي ابنتي.. يالها من قطة متوحشة".

وتحرك بهدوء يقاوم ثقل جسمه بسبب المرض والشلل النصفي، حتى أدرك باب المخزن القائم في ركن الحديقة حيث ساعدته ستسوكو على إخراج عدة الرسم إلى المساحة الخلفية وراء المخزن، تحت الشمس الدافئة، وبدأ يخبط على اللوحة كما لو أنه قرد يرسم.. لم يكن متأكد ماذا

كان يرسم بالضبط، غير أنه سمعها تناديه وهي تفتح الباب الخارجي: "بابا إنها أجمل لوحة أراها لك".

"اي لوحة يا عزيزتي!"

"التي رسمتها.. هذا القطة شرسة.. كما يبدو، لكنها تشبهني"

كان هناك شاب بسحنة شرق أسيوية قد دخل للتو وراءها، يحمل حقيبة صغيرة وكان شعره ممشطا للوراء بشكل أنيق. لاحظ بالتوس ذلك.. وعرفه فورا قبل أن تقدمه هارومي، ورحب به: "أهلا مايك".

قاطعته الابنة: "أبي هذا هو حبيبي الذي أخبرتك عنه.. لقد عدنا الآن بالقطار من برلين"

-11-

كان مايك قصير القامة وكان جرئيا في فعل كل شيء إلا أن مشكلته الوحيدة في الحياة هي أنه غير قادر على التآلف مع القطط حيث يرى فيها عدوا بالنسبة له، ومن الصعب عليه أن يفسر الأسباب إلا إذا فكر مليئا في طفولته. وربما كان هذا الأمر سببا لخلافات بينه و هارومي التي كانت تحبه حقا. ليس لأنه شاب ظريف ومليح، بل لأنه كان يتمتع بعقل وقاد. عقل قادر على التفكير في كل الأشياء وابتكار الأفكار إلا ساعة يتعلق الأمر بقطة ولو وليدة للتو فإن دماغه يتعطل.

عاش مايك طفولته في طوكيو وكان والده يعمل في شركة تويوتا، وفي مساكن رأسية تشبه السجون إلى حد بعيد، أو كما أحسها مايك وهو طفل ثم صبي يذهب في حافلة التويوتا إلى المدرسة المشتركة لأبناء عمال وموظفي الشركة؛ في هذه البيوت المفرغة من المشاعر كما أدرك لاحقا كانت الحياة روتينية وقاسية، ولا مساحة للمجاملات أو الفرح الحقيقي. كان العمال وهم الآباء يذهبون في الفجر الباكر إلى العمل ويعودون آخر اليوم وهم منهكون جدا فيأكلون ويضاجعون الأمهات ثم ينامون، وأحيانا لا يجدون الوقت الكافي حتى للمضاجعة، فينامون فورا وقبل أن يغرقوا في أحلام سارة أو بأي شكل كان، كان يداهمهم اليوم الجديد.

هذه الدورة من الحياة جردت مايك من المشاعر، وكانت تشعره أحيانا بالسخرية والضحك من الحياة وأنها مجرد عبث مستمر، وكثيرا ما سأل والده هل يرى قيمة لحياته؟ فيرد الوالد المنهك الباحث عن أمل يتعلق به في الحياة: "لا أعرف يا ولدي.. لا أعرف!!".

فيما بعد فهم مايك أن التويوتا كغيرها من الشركات تحاول أن تقول للناس في الكتب التي كتبت عنها أنها نموذج لكيان عصري لا يدخله إلا المبدعين الحقيقيين، لكنها في الواقع كانت سجن يخلخل أي طموح يمكن أن يعيش به الإنسان فيتحول بعد مرور السنوات إلى آلة صماء عليها أن تنجز عملها الروتيني.

يعرف جيدا أن والده كان واحد من أكثر اليابانيين خلاقية، ليس بشهادة الوالد نفسه لأنها قد تكون مجروحة، ولكن بشهادة أصدقائه الذين نادرا ما يراهم مايك، أحيانا بعد شهر أو شهرين حيث

يتجمعون في نادي ليلي تابع للشركة. كل شيء يتعاملون معه يحمل شعار التويوتا، وأي مكان يذهبون إليه هو أيضا بالصفة نفسها. حتى أن مايك وهو صبي قال مرة لوالده بسخرية: "بابا هل نحن نعبد تويوتا أم بوذا؟". ومن أصدقاء الوالد أدرك أنه عليه الفخر بذلك الأب الذي تتحدث عنه كل الشركة، ولكنه كان يقول لنفسه وما الفائدة إن كنا لا نزال نعيش في قفص حمام.

كانوا يتحدثون عن العمل، العمل.. لا شيء غيره.. إلا أن جاء ذلك اليوم الذي سمع فيه قصة القطط التي تسكن في المصنع والتي قرر مدير الشركة إعدامها في ليلة واحدة لأنها تقلق نواميس النظام في "الحقل الخصيب"، وهو معنى اسم تويوتا باليابانية. وبالفعل أعدمت القطط وبشكل فظيع لا يمكن لأي عاقل له ذرة من المشاعر أن يتصوره. هذه القصة القديمة كان من الممكن أن تحرك مايك للتعاطف مع هذه الحيوانات المجني عليها، غير أنه بدلا عن ذلك صار يخافها، فقد عاش ليال من الرعب مع كوابيس متقطعة تظهر فيها القطط على أشكال متعددة ومخيفة، ومرة رأى والده على شكل قط بري مطارد، ومرة أخرى رأى نفسه قطا مصنوع من الحديد يعجن في آلة صهر الحديد فيتحول إلى سيارة لكنها لا تعرف السير في الشوارع وتتعطل بعد أن تتقدم لأمتار معدودة وأخيرا تلتهما كلاب حديدية.

حكى لهارومي تلك الذكريات المريرة، والألم الذي قاسه في طفولته، وفي هذا اليوم بعد أن قابل بالتوس سمع منه الفنان عاشق القطط جزءا من تلك الحكايات، فصمت طويلا قبل أن يعلق:

"اعتقد أن تويوتا سوف يكون مصيرها الزوال سريعا"

"لكنها أقوى الشركات في العالم الآن.. أنها سيارة البسطاء"، قالت هارومي.

ضحك مايك كثيرا، قبل أن يشعل سيجارة وينظر إلى بالتوس فيراه يحدق فيه وكأنه يراه لأول مرة، كان يضحك دون أن يعبر عن فكرته، ويشرح لهارومي أن أكبر أكذوبة هي أن تتحدث التويوتا باسم البسطاء، لأنها هي التي تضطهدهم في الواقع. وبالنسبة له فتجربته كفيلة بأن تكون أكبر دليل على ذلك.

لم يسترسل مايك في ذكريات الطفولة القاسية، فقد سمع بالتوس يقول:

"أنهم يخدعون البشر يا ابني.. في حياتي لم أعرف إنسانا يتحدث باسم المال ويكون له أخلاق أو قيم.. وهذا ما يجعلني احترم الحيوانات أكثر من البشر.. فهي لم تخترع شيئا تافها كالعملة في حياتها"

"ببساطة هي لا تملك عقلا لتخترع شيئا"، قال مايك.

ابتسمت هارومي، وردت على مايك غير جادة:

"أنت أذكى من أن يكون هذا التعليق منك"

بالفعل لم تكن تلك قناعة مايك، وتعرف هارومي أنه كثيرا ما يطلق أفكارا لا يؤمن بها على سبيل المزاح أحيانا والسخرية اللاذعة مما يجري في هذا الكوكب في أغلب الأحيان. كان يسخر حتى من نفسه ومن بوذا الذي كان يؤمن به، غير أنه في بعض المرات يلعنه بصوت عال

ويقول "إنه السبب الرئيسي وراء مصائب آسيا. فهناك نصف مليار بوذي ضلوا الطريق لأنهم فكروا أنه مخلصهم".

كانت تصورات مايك صعبة الفهم، وكانت مراوغاته في الحوار تجعل من يدخل معه في مساحة ولو ضئيلة من النقاش يتراجع بعد مضي وقت قصير، لأن مايك كان يراوغ ويراوغ وفي النهاية يجعل كل كلام معقول أو جاد يصبح تافها ولا قيمة له.

الآن يمارس هذا الدور مع بالتوس، وفي قمة الخرف، لكن هذا العجوز لن يتركه، سيظل يراوغ معه إلى الفجر وهما يحتسيان سويا كؤوس البيرة الإيطالية، ومعها كان النقاش يذهب إلى عوالم بعيدة، يقترب ويبتعد دون أن تشكله حدود معقولة. كانا كائنين من جيلين متباعدين يجمع بينهما الانتماء إلى الغرابة واللامعقول.

وقبيل الفجر ذهب مايك سكرانا يتوكأ على كتف هارومي إلى أن وصل السرير في الطابق الأول من البيت، المكون من طابقين. وبجواره نامت هارومي ولم يستيقظ إلا عند الظهر وهو يحتضنها.

وفي اللحظة التي استيقظ فيها أحس كما لو أنه قط مفترس يحتضن قطة صغيرة أليفة بجواره، هي هارومي طبعا.. وتذكر بتشوش أنه رأى أحلاما كثيرة كانت فيها القطط هي التي تعدم البشر هذه المرة، وقد أحس بسعادة وهو يرى هذه المشاهد ويشارك فيها لأنه في الحلم كان قطا ولم يكن بشرا. ومن ضمن الذين تم إعدامهم مدير التويوتا وبالتوس.

وهو يقاوم بقايا السكر ويشعر بجسده متثاقلا أحس بأن قضيبه ينتصب وشعر كما لو أن هارومي كانت تمسك بشيء ما.. كانت القطة قد شرعت في الإمساك بذلك الجزء الحساس منه، ولم تمض سوى دقائق حتى كانا قد غرقا في عالم آخر، كانت تصرخ فيه: "أيها القط الشرس".. وكان صوته غائبا، أو شبه خافت.. لم يكن متأكدا.. وبعد مضي أقل من ربع ساعة.. كان قد غرق في النوم مجددا وهو عار تماما في حين نامت هارومي وظهرها إلى ظهره.

-12-

لم تكن لدى مايك الخبرة الكافية بالكيفية التي تمارس بها القطط الجنس، وقد ظل هذا السؤال يشغله طوال فترة العصر إلى قدوم المساء، وهو يحتسي القهوة التركية مع بالتوس في الحديقة، في حين كانت هارومي مع والدتها يجهزان خبزا فرنسيا.

فكر مايك في توجيه السؤال لبالتوس غير أنه أحس في البداية بالحرج لأن بالتوس ذكي وقد يفهم شيئا ما، لكنه قرر أن يسأل، لأن والد هارومي رجل خبر الحياة بما يكفي ولن يكون متهورا على أية حال.

وبالفعل كان بالتوس قد تعامل مع السؤال بطيب خاطر، وأخبر مايك:

"دائما الأنثى هي التي تبادر.. إنها كثيرة التودد بخلاف الذكر الذي يكون عصبيا ويفقد شهيته بسرعة"

كان مايك يسمع هذه الكلمات ويتذكر ما حدث في الظهيرة بملامح ضبابية، فقد عاش تلك اللحظات كما لو أنه قط يعاشر قطة.. وبصعوبة استرجع المشهد وهو يقول لنفسه: "في مثل هذه الأمور يستوي البشر مع القطط.. الجنس هو الفعل الوحيد الذي يكون فيه الحيوان بشرا والعكس صحيح".

سمع بالتوس يواصل: "الذكور بطبعهم يهربون من المداعبات ويريدون أن يصلوا إلى الذروة مباشرة.. بخلاف الأنثى التي تريد أن تعيش في قبلات متواصلة.. إنها لا تمل هذا الشيء.. إنها تعشق الدغدغة والتمايل والتخنث.. ونحن البشر نكاد نفعل هذا الشيء تقريبا فالرجل بطبعه عندما يتعلق الأمر بالجنس لا يرغب في التفاصيل الكثيرة.. يريد أن يفرغ شحنته العاطفية في الزج بهذا العضو الزائد في مخبئه لكي ينتهي من المسألة وبسرعة".

فكّر مايك مع نفسه، من أين اكتسب بالتوس هذه الخبرات، هل قرأها في الكتب، ولماذا لم يخطر في باله ذات مرة أن يقرأ أشياء كهذه إنها ممتعة على الأقل إن لم تكن مفيدة. وقرر انه سيفعل ذلك عاجلا، ووجه سؤالا لبالتوس:

"هل لديك كتب تروي أمور كهذه؟"

"وماذا تريد من الكتب؟"

"أنه لأمر مفيد.. أن يقرأ المرء في أمور كهذه إنها مسلية"

لم يكن مايك صادقا، ولم يكن بالتوس يحتاج لأدنى ذكاء ليفهم ذلك، فرد ضاحكا:

"مفيدة أم مثيرة للغريزة؟!"

وأردف:

"لديك قطة جميلة اسمها هارومي.. أعرف أن ابنتي شبقة.. أعرف ذلك جيدا"

كان بالتوس صريحا.. كانت هارومي قد أخبرت مايك بهذا، والآن تأكد أنها كانت صادقة. ولم يسترسل مع نفسه حيث قطع عليه بالتوس التفكير قائلا:

"تعال لأريك شيئا"

أخذه إلى حيث مخزن اللوحات، وهناك أراه لوحة صغيرة على شكل "سكتش" غير مكتمل، سأله:

"ماذا ترى هنا؟"

تأمك مايك اللوحة ولم يعرف ما الذي كان يقصده بالتوس بالضبط، لكنه قرر ألا يكون محتالا وأن يجيب بما يراه فعلا، قال:

"هناك امرأة.. جميلة.. لها شعر مسترسل.. هي إلى حد ما وديعة وتشبه قطة في شكل جسدها.. وهنا قط بجوارها.. لا إنه آدمي"

ابتسم بالتوس، وأشار له بأن يخرجا من المخزن، بعد أن غطى اللوحة ووضعها في مكانها في رف صغير كان مقسم لأجزاء رأسية في كل جزء وضعت لوحة بنفس حجم اللوحة السابقة.

فهم مايك أن المقصود قد تحقق.. وأدرك أن بالتوس يريد أن يخبره أن هذه اللوحة تصور المساحة التي يتلاشى فيها تقريبا الفرق بين الإنسان والقط.. فالأنثى هنا ممثلة في القطة في حين يلعب الإنسان، دور الذكر.

كانت تلك الرسالة التي ينوي بالتوس إيصالها، وقد أدرك والد هارومي أن مايك سيفهمها ببساطة فقد وثق في عقله.

وهما يتخذان طريقهما إلى الحديقة للجلوس مرة أخرى، قال بالتوس:

"لا أدري هل أفخر بك أم بابنتي؟!"

شعر مايك بالفرح، وكما لو أنه طفل في مدينة ملاهي.. وفاتح بالتوس أنه يريد الزواج من ابنته اليوم إن لم يكن غدا.. ولم يسمع ردا، فقط اكتفى بتأمل وجه العجوز الذي رسمت فيه تفاصيل العقود التسعة من حياته خرائط معقدة يمكن للناظر إليها ولفترة محدودة أن يرى فيها أشكالا لا نهائية، لما يدور بذهنه من تصورات لأي أشياء كانت. كانت الخرائط قد أنبأته بالإيجاب، أن هارومي هي نصيبه هو، لا أحد غيره.

كانت هارومي قد وضعت طاولة صغيرة إلى جوارهما وكان الخبز الفرنسي جاهزا مع الحليب الساخن، وبدا لمايك كما لو أنه يعيش أجمل لحظة في حياته.

-13-

"... كان الفراعنة قد اكتشفوا منذ فترة مبكرة في القرن السادس عشر قبل الميلاد أمورا كثيرة تتعلق بالقط وقدراته الجنسية، وأن كيمياء الجنس عنده تشبه إلى حد كبير الطريقة التي يتعامل بها الإنسان مع فعل الحب، فخلال خبراتهم مع الحيوانات المختلفة لم يتعرفوا على كائن يمكن التعلم منه في هذا الإطار سوى القط. ولهذا السبب كان الملوك يحتفظون بالقطط في قصورهم وكان الرسامون قد شرعوا في تصويرها بأوامر ملكية حيث غطت صورها جدر المعابد، في فترة من التاريخ كان من الصعب الفرز فيها بين طقوس العبادة وطقوس الجنس... "

"... في كثير من المعابد التي ما تزال قائمة في مصر، يمكن للزائر أن يرى بتدقيق النظر صور لقطط ذكور وهي تمارس الجنس مع قطط أناث، وبشكل فاضح. وبعض هذه الصور تمت إزالتها في فترات متفاوتة بحجة أنها تخدش الحياء، لاسيما في العهد التركي، فقد كان الأتراك الذين مارسوا كل شيء ضد الأخلاق، يظنون أنهم سيصبحون أخلاقيين ساعة يغيرون التاريخ المكشوف للعامة في تلك الرسومات داخل المعابد. والغريب – وليس غريبا – أن بعض الصور وهي منحوتة على الحجر تم نقلها إلى داخل قصور الباشاوات الذين اعتمد عليها بعضهم في الاستثارة الجنسية، وهم يضاجعون حريمهم أو الغلمان أو يمارسون الاستمناء. ليس ثمة فرق..."

مثل هذين النصين وردا كثيرا في كتب المستشرقين، لكنها تعرضت للاجتزاز لاحقا في الطبعات العربية، بعد أن أصبح الجنس البعبع الذي يرغب فيه الشرقيون بشكل سري ويجاهرون ضده علنا. وقد كان شارل ديغول مغرما بقراءة مثل هذه الكتب التي تروي هذه القصص.. وسبقه في هذا الغرام مؤسس الأمبراطورية الفرنسية نابليون بونابرت، بفرق بسيط أن الأخير كان معروفا بخوفه من القطط ولا توجد مراجع كافية تفسر سبب ذلك الخوف.

في الحملة الفرنسية النابليونية على مصر، جرت أمور كثيرة قلة تعرف عنها.. ليست لأنها غير موثقة.. بل لأن المصادر التي وثقتها تمّ اخفاؤها في متاحف أوروبية وباتت بعيدة عن أعين الباحثين، بل أن بعض المصادر استولى عليها أناس بعينهم من يهود فرنسا وأصبحت جزءا من ميراثهم الأسري.

من تلك المصادر كتاب ألفه أحد مستشاري نابليون، يهودي أيضا، يكني نفسه "سناب .ج" لا توجد تفاصيل عنه أكثر من ذلك.. يورد فيه قصة الاستيلاء على مئات اللوحات من معابد مصر والتي أخذت عبر البحر إلى فرنسا، ويروي أن هذه الكنوز كانت معظمها تصور القطط في أوضاع جنسية مثيرة.. قطط تضاجع البشر.. بشر يضاجعون القطط.. ملوك عراة وهم يحتلبون قضبان ذكور القطط في أفواههم.. قطط كاسية وهي تنام على أحضان غلمان صغار عراة.. قطط في حفلات جنسية جماعية.. حكايات لا حصر لها بحيث يصعب على المرء تصديقها.

ولنا أن نتخيل أن الحملة الفرنسية سبقت الحكم التركي في مصر.. وهذا يعني أن ما تبقى من لوحات وصور بالمعابد كان هو الأكثر ذوقا وأدبا مقارنة بذلك الذي ينقل قصته اليهودي "سناب.ج"، مع الإشارة إلى أن بعض المعابد اكتشفت في عهد محمد علي باشا ولم تكن معروفة في الفترة التي قدم فيها نابليون بونابرت إلى مصر.

يدرك المؤرخون أن اليهود هم الذين دفعوا فاتورة الحملة الفرنسية على مصر. وقد فشل نابليون في الوعود التي قطعها على اليهود باحتلال فلسطين بعد مصر وتحويلها إلى وطن لهم. ويقال أن أخلاق اللصوص تظهر ساعة يختلفون. وهذا ما حدث بالضبط حيث أن اليهود عندما اختلفوا مع نابليون دبروا مكيدة لاغتياله، لكنها فشلت. أما الأمر الذي لم يفشلوا فيه فهو فوزهم بتلك الكنوز الثمينة من لوحات القطط المقدسة.. القطط الخارجة عن حدود اللياقة والأدب.

هناك كتاب عبريون يدركون هذه الحقائق جيدا، فقبل أقل من عشرة سنوات نشرت واحدة من كبرى الصحف العبرية في إسرائيل وهي صحيفة " يديعوت احرنوت" مقالا لكتاب غير معروف بشكل جيد يدعى "عزرائيل حنا" أشار فيه إلى أن إسرائيل تعكف على بناء متحف ضخم – لم يحدد موقعه – سيضم هذا الصرح داخله مئات اللوحات التي نهبت أثناء الحملة الفرنسية على مصر، وذكر الكاتب حنا بشكل طفيف أن جزءا كبيرا من تلك اللوحات تدور عوالمه حول القطط. ولم يذهب إلى أكثر من ذلك، فباقي المقال عبارة عن ثرثرة حول حملة نابليون وعن أثرياء اليهود في مطلع القرن التاسع عشر الذين اقتنوا بالفعل من وراء حملة نابليون رغم أنهم لم يفوزا بوطنهم البديل وقتذاك.

مر ذلك المقال مرور الكرام. لكن نائبا برلمانيا في الكنيست من أصول عربية نشر له تعليقا مقتضبا في الصحيفة نفسها بصفحة القراء، من باب احترام النقد ورأى الآخر، كتب: "أن بناء

الدولة العربية كان مخططا قديما.. وأنها بُنيت بأموال العرب..".. كلام عادي إن نشر أو لم ينشر.. لكن هل كان ذلك الجزء يعبر عن المقال الحقيقي الذي تم ترميز اسم كاتبه. بالطبع لا.. وهذا ما كشفه أحد الصحفيين العبريين وهو "بنيامين شمعون" الذي كتب كتابا محدود التداول باللغة الفرنسية، نشر قبل عامين، بعنوان "الصحافة العبرية.. ما لم يكتب".. أورد فيه نص المقال الكامل للنائب العربي، ومنه يفهم أن النائب كان غاضبا وبذئيا إلى أبعد الحدود، في وصف اليهود بأنهم سادوا العالم بالجنس أولا وبالمال ثانيا. وأنهم قطط خرقاء اخترعت الدعارة ونشرتها في العالم منذ قرون بعيدة، وأنهم أول من أدخل مفهوم السكرتير الأنثى في المكاتب الحديثة لأهداف قذرة وغيرها من "الترهات".. كما يعلق الصحفي شمعون. الذي أورد المقال ليكشف من خلاله وفق إفادته أن العقل العربي يعيش على أوهام الجنس.

-14-

في غمرة صراع الجزائريين وثورتهم ضد فرنسا، كان شارل ديغول يجد تسليته الوحيدة في القراءة، حتى ينسى بعضا من همومه كسياسي عاجز عن الوصول إلى حل نهائي وقاطع بخصوص ما يجري في الجزائر. ومن حسن حظه أنه تلقى هدية لم يكن يتوقعها من شاب يافع كان أحد أعضاء فرقة "ملك القطط".

كان ديغول قد ذهب إلى مسرح "لافيليت" لحضور الحفل الغنائي الذي تقيمه الفرقة، لهدف سياسي بحت غير معلن.. وهو كسب حماس جيل من الشباب الذين يمكن تجنيدهم والزج بهم في أتون الحرب. لكن الهدف المعلن هو أن ديغول يشجع المواهب الجديدة ويؤمن بأن فرنسا الخامسة.. أو الجمهورية الخامسة هي التي سوف تصنع المستقبل، وستصنعه بشتى الصور وبكافة الوسائل.. بالفن والموسيقى والرسم والعمارة والأدب والفلسفة وغيرها من مفردات أريد بها توهيم الشباب.. وفي تلك الفترة كانت الإحصائيات السكانية تشير إلى أن أكثر من 60 بالمائة من سكان البلاد هم في السن من 14 إلى 26 سنة وهذا يعني مكسبا كبيرا لديغول. وأن الحرب لن تحار في لملمة المزيد من الجنود الصغار.

وغنى شباب الفرقة وهم يقفزون على أرضية المسرح كأنهم قطط حقيقية، وفي برهة من الزمن فقد فيها ديغول مشاعره الحقيقية كسياسي براغماتي، كان قد شعر بأنه يندمج فعلا مع الشباب ومع الأغاني التي قدموها. وصفق كثيرا خاصة عندما غنى الشباب الأغنية الأكثر شعبية، والتي هي "ملك القطط" عنوان الفرقة.

وما أن وصل المغنيون الصغار الخمسة، المقطع الأخير، مع موسيقى الجاز، إلا ووقف ديغول وصعد بجوارهم على المسرح وأمسك بالمايك المقرون بالأسلاك الغليظة، وغنى بصوت لم يكن جميلا على أية حال، لكن المنافقين الذين جلسوا في الصفوف الأولى - وأغلبهم وزراء في الحكومة ورجال أعمال وأكاديميين منتفعين كما يحلو لبالتوس وصفهم – كانوا قد قاموا جميعهم واقفين تاركين المقاعد شاغرة وهم يرددون وراء ديغول:

"مهما فعلوا وأدعوا واستمتعوا

فإنني سوف أنتصر عليهم

هم لا يعلمون من علمهم الحرية

ومن قال لهم كونوا سواسية

إنه القط الذكي .. الملك العبقري"

انتهى الحفل وأسرع الحرس الجمهوري للإحاطة بشارل ديغول، الذي بدأ مهمته الفعلية.. فقد عاد إلى رشده، حيث بدأ في إلقاء خطبة صغيرة لكنها مركزة، من على المسرح، حث فيها الشباب على أن يكون ملوك حقيقيين.. قال لهم: "كان جميلا أن نغني ونبتهج.. لكن فرنسا لن يبنيها ويحفظ مجدها الغناء وحده.. فالملوك القطط بجديتهم وبعزمهم يجب أن يكونوا شجعان.. عليهم ألا يتركوا الفئران تدخل إلى بيوتهم الكبيرة.. يجب أن نقتلهم في جحورهم ونصب عليهم الزيت الحار أو ننصب لهم شراك البصل المسموم".

كان التصفيق قد علا، وكان المنافقون في الصفوف الأولى هم الذين صفقوا أولا.. واشتعل حماس الشباب الذين تعبأت بهم قاعة المسرح.. وبعضهم كانوا معلقين على نهاية الجدران الخلفي للمسرح.. وبدأ الهتاف بأصوات عالية، دون أن يفهم ديغول نفسه من أين انطلقت إشارة الهتاف الأولى:

"... عاشت فرنسا.. الموت لفئران الصحراء"

في تلك الليلة تم تسجيل 1700 شابا كمتطوعين للسفر إلى الجزائر، في حين كان جملة الحضور في ذلك الحفل حوالي 2000 شابا وشابة.. والذين سجلوا اسماؤهم كان من ضمنهم ما لا يقل عن 300 فتاة بكافة مواصفات الأنثى الفاتنة، كما صوّر ديغول نفسه المشهد أمام مجلس الوزراء الفرنسي في جلسة الأسبوع التالي.

لم تنته القصة هنا، فقد وجد ديغول أحد شباب الفرقة يصرخ وهو يقاوم الحرس الجمهوري قائلا: "دعوني أسلم عليه.. أنه ليس رئيسكم أنتم فحسب.. أنه لنا نحن جميعا أبناء فرنسا الخامسة".

أشار ديغول إلى الحرس أن يتركوا الشاب ليصل إليه، وكان يحمل في يده الكتاب الذي أهداه للرئيس ومثل أجمل هدية له لم يتوقعها.

أستلم ديغول الكتاب دون أن يقرأ عنوانه ووضعه بين أبطيه، لكن بعد يومين أخذه من على طاولة مكتبه في منتصف الليل وهو غير قادر على النوم بسبب بعض الأخبار السيئة أن هناك موت بالمئات في صفوف جنوده. وما أن قرأ العنوان حتى شعر بالإثارة.

-15-

كان ديغول قد تسلم نسخة من كتاب "المجهول في البيت" للدكتور ميري، وبالنسبة له وهو يقرأ الصفحات الأولى من الكتاب فقد شعر بالمتعة، وأنه بدا ينسى الألم الذي يعانيه جراء الهزيمة القاسية التي يتعرض لها جنوده في الجزائر. وكما علمنا سابقا فإن الكتاب أصبح في نظر ديغول "بابيل صغير" لإمكانية فهم الطريقة التي تفكر بها فرنسا الحديثة. والدكتور ميري نفسه كان

يعلم وهو يكتب كتابه هذا أنه يقوم بعمل منظم دون سياق ثقافي محدد، فميري قد لا يكون متأكدا من الكيفية التي يعمل بها، غير أنه واثق تماما من أن فرنسا تتغير وبشكل ما، والسبب المباشر في ذلك وقد لا يكون الأمر واضحا لأغلب الناس، هو القطط.

كان شارل ديغول في حيرة وهو يقرأ، فقد أغلق الكتاب وبدا يفكر عن السبب الذي جعل فرنسا تتجه نحو هذا العشق الهيامي للقطط. هل جنّ هذا الشعب الذي صنع أعظم ثورات التاريخ الحديث؟ كان يسأل نفسه، ثم يعود للقراءة مجددا. وتقريبا في ليلة ونصف ليلة كان قد أكمل الكتاب كاملا، وكان قد أخذ النسخة معه إلى المكتب في الصباح، لكنه لم يستطع متابعة سوى صفحات قليلة لأن ساعات العمل مضت في التخطيط لميزانية دعم الحرب وراء المتوسط.

ولأول مرة كان مثقف فرنسا الكبير، بوصفه القائد والسياسي الأول في البلد. كان قد تعرف على معلومات لم يكن يدركها من قبل عن علاقة نابليون المشوشة مع القطط، وعن بودلير الشاعر، وعن ريلكه، ولم يهمه أمره كثيرا فهو ليس فرنسيا وهو أيضا سارق لأفكار بودلير. وتعرف عن كيف كان الفراعنة قديما يقدسون القطط، بل عبدوها، وسموا أحدها بأله الحب والخصوبة واتخذوا له اسم "استيت" أو "باست" وكان ذلك الإله له رأس قط وجسد امرأة. وهنا توقف ديغول ليفسر أحد الأمور وإن لم يكن يحمل الدليل الدامغ على قوة فكرته. أن المرأة هي وراء الهوس الفرنسي بالقطط. فالفرنسيون ذكورا، هم شعب عاشق للنساء، ما أن يرى الرجل منهم أنثى حتى يصرع، قد يكون في فرنسا رجال مخنثون أو لوطيون، لكنهم يظلون قلة. ويعرف ديغول ذلك جيدا لأنه رأى كثافة السلوك المثلي عند الذكور في لندن أثناء الحرب العالمية الثانية وهو يخطط لدحر النازيين من فرنسا. واستغرق في السبب فتوصل إلى نتيجة بسيطة أن المرأة الفرنسية تكاد تكون أجمل النساء في أوروبا بطولها الفارع وشعرها المتدلي وعطرها الفواح.. أليست فرنسا عاصمة العطر والأناقة النسوية في العالم. أما المرأة البريطانية فهي في الغالب مكتنزة الجسد، عظامها عريضة، ونادرا ما يقابل المرء سيدة لندنية ذات رائحة مريحة، فأغلبهن نتنات لا يجدن الغسل جيدا بعد الفراغ من التغوط. أليس هذا مدعاة لتفريخ ثلة من الرجال اللوطيين.

في ليال الحرب ورغم الشد العصبي الشديد، إلا أن ديغول كان يجد فرصة من وقت لآخر لمضاجعة امرأة، حيث يجد في الجماع روحا أخرى غير روحه العسكرية المشغولة بالخطط والقتل. لكنه لم يجامع سوى ثلاث نساء بريطانيات، وبعدها قرر أن يقتصر على الفرنسيات من مجندات الجيش أو نساء الريف الاسكتلندي اللائي يخدمن كبار الجنرالات في المعسكرات، فهؤلاء رائعات جدا. يكفي الواحدة منهن أنها تلبس تنورة راقية يفوح منها عطر طبيعي وكأن التنورة مغسولة للتو بماء الورد المقطر في الحقول تحت شمس الصيف الدافئة. وإذا قيست المسافة الفارقة بين الفرنسية والاسكتلندية فهي ليست كبيرة. الفرق أن الفرنسيات أكثر تحضرا، يعرفن كيف يوظفن المكياجات الحديثة والملابس الضيقة، وغالبا هن بلا سراويل إذا ما اقتصرن على التنورات والبلوزات أو لبسن الجينز، أما الاسكتلندية تظل بسيطة كأنها تتعرف على العالم لأول مرة، يلبسن سراويل طويلة قطنية، ولم يسمعن عن المكياج بعد، وتنام الواحدة منهن مع الرجل وكأنها تتعرف على الجنس لأول مرة، حتى لو أنها عاشرت عشرات الرجال من قبل. هذا لا يعني أن الفرنسية ليس لديها لباقة، هي لبقة.. لكن الاسكتلندية صادقة، لا تمثل أبدا.

استغرق ديغول في ذكريات الحرب وسنوات الجنس العابر، والليالي الملغمة بالقنابل، ووجد نفسه يخبر دماغه بشيء مخيف، فقد تخيل أن القطط الفرنسية، ويعني النساء، سوف تخرب فرنسا الحديثة، ولاحقا حدث شيء من هذا القبيل حيث كادت امرأة أن تخرب سمعة رئيس وزراء فرنسي بعد أن تزوجها لمجرد أنها أغرته. لكن ليس هذا كل الأمر، فالواقع أن السياسة الفرنسية وإلى حد بعيد يقوم فضاءها ومركزها على الجنس. ليس في زمن ديغول بشكل مكتمل، فإلى تلك الفترة، كانت ثمة أصول وبقية من الحكمة الفرنسية الحديثة، المتوارثة. لكن ومع سنوات شارل الأخيرة في الحكم ومع بداية السبعينات بدأت فرنسا تجني ثمرة صرعة القطط في الستينات في شكل سياسيين يصعدون إلى أعلى المراتب وآخرون يهوون إلى السحيق الأدنى، بسبب الثورة الجنسية، بسبب النساء، قطط فرنسا الجديدة التي أصبح فيها كل شيء ملونا ومخادعا.

-16-

كان ديغول غير صادق مع نفسه في أمور كثيرة.. خاصة في موضوع النساء. كان يبدو لوزرائه في هيئة الشريف، الذي يحترم المرأة ويقدس العلاقة الزوجية، وينظر إلى الجنس في في شكله "الطبيعي" كما أقرته الديانات، كان البعض يراه كراهب في هذا الجانب. وآخرون أشاعوا عنه أنه مثلي، ويستدلون على ذلك بنكتة يرددها بعض الفرنسيين عن حذر لأصدقائهم وأقرب الأقارب، لأن مجرد ذكر شارل ديغول بمرتبة أقل من القديس تثير الخوف. تقول النكتة أن كل من يعيش في لندن عشر أيام يعود منها لوطيا. وشارل ليس استثناء على أي حال.

وعندما تخيل ديغول أن صرعة القطط سوف تخرب السياسة الفرنسية لاحقا. كان يستدل بنفسه، لكنه – أي ديغول – كان حذرا وغادر كرسي الحكم دون أن يترك أثرا على أنه زير نساء. وقد دفع بكتاب الدكتور ميري ليكون "بايبل فرنسا" حتى يغطي على اتهامه بالمثلية، وفي الوقت نفسه كان يراوده تشتت ذهني في بعض الأحيان أن يؤدي إصراره على تعميم هذا الكتاب كثقافة عامة، إلى عكس الاتهام بعد أن يكتشف الناس أن ديغول هو العكس تماما، هو ذلك الرجل الذي لا يستطيع أن يصمد أمام أي امراة تثيره.

لكن تكهنات ديغول مضت في طريقها الصحيح. فقد انتشر الفساد في فرنسا، وخربت مؤسسات السكك الحديدية أولا وتلتها المصانع التي كانت تنتج كل شيء يمكن تخيله، والسبب كان هو المرأة. القطط التي شكلت مخيلة الناس. لكن السبب الرئيسي كان هو السياسيون الذين كانوا قد خرجوا عن الحياء تماما. وأصبحوا يجاهرون بعشق النساء ويمارسون الجنس بسلوك القط، حيث لا صبر للذكر، وحيث الأناث تظن أن المتعة يجب أن تكون في زمن أطول.

وقد لاحظ ديغول بدايات التغيير المتوقع، عندما أصبح بعض وزراء حكومته يأتون إلى اجتماع مجلس الوزراء وهم حليقو الحواجب، تماما كما لو أنهم قرأوا بحرفية تامة ما أورده الدكتور ميري في كتابه عن أن الفراعنة كانوا عندما يموت قط يسرعون لحلق الحواجب علامة على الحداد. ويتخيل ديغول أن حداد الوزراء كان على امرأة عجز الواحد منهم على اقتناصها، أن تكون قطة سهل المنال بالنسبة له. كان يسخر من الوضع ويقول لنفسه وهو يلقي نظرة على الرجال الجالسين حول الطاولة المستديرة أمامه: "كيف يبني رجال لا صبر لهم ولو لساعة لكي

يشعروا امرأة بالمتعة الحقيقية، كيف سيكونون قادرين على بناء الجمهورية الخامسة والنهوض بها!". لكن هذه الأسئلة التي كانت تشغل ذهنه لثوان معدودات في الاجتماع سرعان ما تتلاشى، لأن الجميع ينفض، ويهرب ديغول إلى مكتبه ملاحقا روتين العمل اليومي، ومفكرا في قطة يفوز بها بأقل متعة تحصلها.

رغم أن ديغول ذهب إلى أن وزراءه ربما قرأوا ما كتبه الدكتور ميري، إلا أن لم يكن على ثقة في كونهم جلدين على القراءة، فأغلبهم في نظره أناس سطحيون في هذا الجانب. وهو ما يثير استغرابه كيف يمكن لشخص لا يقرأ قيادة أمة. لكن هذا حدث. وحدث تحديدا في البلد الذي خرّج مئات المفكرين والفلاسفة والمثقفين والروائيين إلى العالم. غير أن الصورة التي كانت حاضرة في ذهن ديغول أن أغلب الرجال الفرنسيين بما فيهم حكومته أصبحوا نسخة مشوهة لأحدب نوتردام. رجال مسخ لقطط قبيحة المنظر، مفعمون بحب الأنثى، وغارقون في التيه بسبب العشق، وقد كان الأحدب الحقيقي أشرف منهم لأنه كان يحب بإخلاص ومن أجل الحب. أما هؤلاء الجدد فهم يحبون فقط لمتعهم البالية والسريعة.

يتأمل ديغول في الرجال حول الطاولة، فيرى أنهم قبيحو المنظر فعلا.. وهنا فهم شيئا لم يرد في ذهنه وهو يقرأ كتاب ميري لأول مرة... فهم لماذا انتشرت معدلات السحاق بشكل كبير في فرنسا في السنوات الأخيرة، في إحصائيات غير معلنة. وتذكر أنه عندما عرض عليه أحد مستشاريه الأرقام ذهل، وضحك قائلا للمستشار الذي كان يعرف الكثير عن أسرار الرئيس: "بعد اليوم يجب أن لا نضحك على البريطانيين.. إذا كان هذا حال نساؤنا".

ما لم يكن ديغول قادرا على تحليله أو فهمه الأسباب الحقيقة وراء تصاعد معدلات السحاق في بلده. لكنه كان شبه متأكد أن القطط وراء هذا الشيء. "هذه الصرعة الجوفاء!". يسميها جوفاء ويعمل على تمديدها. هذا ما كان يفعله بالضبط كما وضح من أمور كثيرة أبرزها قصة كتاب ميري وتشجيعه الكذاب للفرقة الغنائية "ملك القطط" وغيرها من التصرفات التي لا حصر لها.

وحتى يحصل على إفادة علمية واضحة طلب من مستشاره تشكيل فريق بحثي لمعرفة السبب الرئيسي وراء الظاهرة، وقال له مازحا: ".. ودققوا إن كان للقطط دور في الأمر؟"، وقد أخذ المستشار المزحة بمحمل الجد، فهو يفهم ديغول جيدا والطريقة التي يفكر بها.

بعد شهر كان أمام شارل ديغول تقرير مفصل، وأدرك أن تكهناته بشأن القطط كانت صحيحة، فقد ورد في التقرير: "كثير من الشباب ذكورا وإناثا أصبحوا على هيئة القطط في أشكالهم لو أننا تأملناهم بدقة.. وهذا يعني ببساطة سيادة الشكل الأنثوي.. فالفتيات من الجيل الجديد أصبحن ينظرن إلى الأولاد من جيلهن كما لو أنهم أناث في الشكل.. هذا السلوك ساهم إلى حد ما في نشر السحاق.. لأن سيادة صورة الأنثى في الأذهان بحيث يكاد يكون شكل الذكر قد ألغى تماما، جعل معظم البنات والمراهقات والشابات من الجيل الصاعد يفكرن في الرجل كما لو أنه أنثى. ونتيجة ذلك وبتعمق هذا التفكير وهذه الصورة الذهنية، كانت المئات من الطالبات في داخليات الجامعات ممن قدمن من الريف الفرنسي ويسكن شريكات في الغرف، يلجأن في الليل إلى رفيقاتهن لإشباع لذتهن.. والغريب أن بعض الشهادات في هذا الإطار جاءت مطابقة للتحليل فقد ذكرت أكثر من طالبة إنها تستمتع مع رفيقتها كما لو أن رجلا يلتهمها".

هنا أعاد ديغول صورة شباب فرقة "ملك القطط" ولم يكن محتاجا لاسترجاع الصورة في ذهنه، لأن صورة جماعية للشباب الخمسة - حيث لا توجد أنثى في الفرقة – كانت معلقة على الحائط الجانبي في غرفة مكتبه بالبيت. وتحرك من الكرسي البلاستيكي بإتجاه الجدار حيث وقف يتأمل الشباب، فوجد أن ما ورد في التقرير يكاد يكون دقيقا فهو لا يرى أمامه ذكورا وإنما إناث، وبالأحرى يرى قططا سيامية، حيث تطاير الشعر وتناثرت الشوارب الصغيرة، وحلقت الحواجب، ولزقت الملابس الضيقة بالجسد، وهم في الغالب بلا سراويل داخلية.

رجع للوراء وهو يحدث نفسه بصوت مرتفع: "يالخسارة فرنسا!".

وأكمل سرا: "الآن ليس أمام البريطانيين إلا أن يسخروا منا دون أن تكون لنا ذريعة لنفخر بنسائنا، فهاهم أولادنا سيصبحون لوطيين جدد.."

يشير التقرير أيضا إلى جمعية سرية باسم "بنات سافو" تمارس السحاق، في معبد معروف في أحد ضواحي باريس.. هذه الجمعية لها فروع في كل مدينة تقريبا، وتأتي السحاقيات نهاية الأسبوع إلى الضاحية الباريسية، ليكون حفلا جنسيا يذكر بتلك اللوحات التي رسمها قدماء الفراعنة على الصخر، حيث القطط التي تمارس الجنس في طقس جماعي.

يقول التقرير: "الغريب أن حوالي 95% من عضوات سافو هي حسان النساء، وهن شابات لم يتجاوزن الثلاثين.. وذلك لأن الجمعية لا تقبل العضوية إلا بعد شروط معينة ومعاينة تتم للمتقدمة التي تكون قد تمت تزكيتها من قبل ثلاث عضوات سابقات على الأقل.. ومن طقوس المعاينة أن تتعرى المتقدمة تماما أمام لجنة الاختيار للتدقيق في محاسنها ومدى صلاحيتها وإثارتها للشهوة".

ويشرح التقرير معنى كلمة (سافو): "هي الشاعرة الأغريقية الجميلة التي كانت تحمل ذلك الاسم، ويعني الصوت النقي.. ويقال أنها أول من علمت النساء السحاق ونشرته في اليونان القديمة في أثينا، وقد كانت تسكن جزيرة لسبوس في بحر إيجة باليونان وكانت ذات جمال باهر وذكاء فني وكانت أيضا شاعرة موهوبة. وعاشت بين الأعوام 560، 630 قبل الميلاد. ولدت في أربسوس، القرية الصغيرة على الجزيرة، ومات أبوها وهي في التاسعة من العمر وأمها ما تزال جميلة جذابة وفي الخامسة عشر من عمرها، تزوجت برجل وولدت له طفلة، وفشلت في الحب مع زوجها حيث أصيب بالعُنة، فلم يقدر أن يشبع غريزتها، ولم تقدر هي الأخرى على كبت الغريزة وقهرها فنفرت من الرجال واتجهت نحو بنات جنسها من العذارى الحسان اللاتي يرددن معها الشعر ويغنين ويعزفن أحلى الألحان ويمارسن معها الحب فمارست معهن السحاق حتى عشقته وألفته معهن واستغنى به الكل عن الرجال. وفي آخر حياتها اشتركت في مشاكل جزيرة لسبوس – السياسية - واضطرت للفرار إلى صقلية وماتت هناك وأُحرقت ونقل رمادها إلى بلدها - كما خُلد اسمها برسم صورتها على الآنية والنقود".

-17-

كان الدكتور ميري قد فكر في كتابة "المجهول في البيت" بعد أن رأى كيف أن صرعة القطط باتت هوسا فرنسيا، ورغم أنه متخصص في علم الحيوان بشكل عام، إلا أن معرفته بالقطط قبل

أن يكتب "المجهول" لم تكن بالشكل الضافي الذي يمكنه من كتابة محترمة عن هذا الموضوع. لكنه عكف عدة شهور في بيته وأخذ تفرغا من الجامعة اليسوعية في باريس، ليبدأ مشروعه.

وبمجرد أن قرر، كانت المراجع تناهل عليه من حيث لا يدري، فقد اكتشف أن التاريخ البشري وبعبارة فيها شيء من المبالغة، يكاد يكون هو تاريخ القطط. كثير من الأمور ظلت غائبة. ليس هو بودلير ولا الذين سبقوه من يهود فرنسا هم الذين روجوا لعصر القطط، فقد بدا هذا الهوس مبكرا منذ زمن الفراعنة، لكن في فرنسا بالتحديد وعموم أوروبا فقد بدأت المسألة في نهاية القرن التاسع وبداية القرن العاشر الميلاديين، وقبلها لم يكن الأوربيون يهتمون كثيرا بشأن القطط. لكن هذه المعلومات التي توصل إليها ميري ووثقها في كتابه ليست دقيقة تماما لأن اليونانيين كان يعرفون القطط وكان الأغريق قد أستأنسوها وعاشت معهم في البيوت، كما يتضح من حكاية "سافو" - التي سأرويها لاحقا - وكيف ساهمت القطط في تحويل مزاج "سافو" لتصبح "رائدة السحاق" في الحضارة الإنسانية!.

ما توصل إليه الدكتور ميري في كتابه، يركز كثيرا على فرنسا.. رغم أنه أدعى أن كتابه يتحدث عن الإنسان والقط عبر التاريخ، لكن الفرنسيين في تلك الفترة كانوا يتحدثون وفي كافة المجالات كما لو أنهم "ملوك الكون".. "ملوك القطط".. كما لو أنهم سادة العالم.. وساهمت الثقافة الفرنسية في كافة ضروبها في تعميق هذا الفهم بشكل خصم من رصيد فرنسا لاحقا.

يعود ميري إلى مشهد قديم يتعلق بلويس الخامس عشر (1715 – 1774م) والذي قامت الثورة الفرنسية بعده بفترة وجيزة في 1789 وانتهت تقريباً سنة 1799م. في ذلك المشهد أصدر لويس الخامس عشر أمرا يقضي بوقف عمليات الإبادة الوحشية للقطط، حيث كانت تلك الحيوانات المسكينة تقتل بلا هوادة لاعتقاد عام في أوروبا أنها وراء انتشار مرض الطاعون الذي كان يسمى بالموت العظيم أو "الموت الأسود"، وقد انتشر مرعبا في الفترة بين عامي 1347 و1352م، وتسبب في موت ما لا يقل عن ثلث سكان القارة. ومنذ ذلك الوقت كان الطاعون يذهب ويأتي ويحصد المئات لكن ليس بالضراوة الأولى، لكن عموما ظل الاعتقاد بأن "الشيطان الأسود" أي "القطط السوداء" تحديدا هي وراء ذلك الوباء.

كان من الصعب على أي إنسان مهما أوتي من العلم والحكمة أن يقنع الفرنسيين بالتحديد لأنهم شعب حاد المزاج وصعب التلقي إذا حدد فكرة معينة في ذهنه. كان صعبا أن يعكسوا مشاعرهم نحو القطط بحيث يبدلون كراهيتها إلى محبة. ولم يكن ثمة أحد قبل، لويس الخامس عشر، يتوقع أن يأتي يوم من الأيام تصبح فيه القطط هي محبوبة فرنسا الأولى وتسكن في كل بيت تقريبا، وأبعد من ذلك تصبح رمزا للمرأة المثيرة، وعاملا من عوامل وهن فرنسا سياسيا وقتها أيضا.. وربما العنصرية والاستعلاء على الآخر، بشكل عام تصبح "أيكونة معقدة" في تاريخ جديد.

لكن هذا الصعب تحقق.. وأصبح واقعا. غير أن الطريف في الأمر كما يرى الدكتور ميري أن لويس بقراره هذا، الذي لا توجد المراجع الكافية لتبريره، كان قد حكم بموت الملكية في البلاد. فقرار وقف إبادة القطط ساهم إلى حد ما مع عوامل أخرى في قيام الثورة الفرنسية، لأنه لم تمض سوى سنوات معدودة حتى تضعضعت الملكية وانتهت في فرنسا تماما.

وهنا يطرح ميري سؤالا لا يمكن للقارئ أن يفهم هل هو على سبيل التندر أم الجد. والسؤال هو "هل يمكن أن تكون القطط بعد أن عادت في وقت وجيز لتسكن البيوت وتعيش مع البشر، هي السبب وراء تحريك الشعب الفرنسي نحو الثورة بعد أن غيرت سلوكه كما غيرت سلوك شعوب كثيرة في العالم عندما شاركتهم البيوت؟!".. سؤال جيد، لكن الإجابة عليه ليست بالسهلة. وإلى الآن ما يزال هناك باحثون يسألون.. ذلك السؤال.. بالأحرى يسألون: "هل كان لويس ينسج مؤامرة ضد الملكية لأنه لم يكن يؤمن بأن فرنسا يجب أن تستمر على هذه الشاكلة بخلاف سلفه؟!".. أيضا ليس سهلا الحصول على إجابة واضحة.

لكن الواضح كما يرى الدكتور ميري أن لويس كان يتحرك بدافع نفعي، وقد اعتمد على خبراء في علم المحاصيل، أشاروا إلى أن القوارض بدأت تهدد محصول القمح في فرنسا، وأنه إذا لم تتخذ خطوات عاجلة بالحل لتوفير الخبز، فإن الشعب الفرنسي سوف يموت جوعا وقد يثور!!، ومن جانب آخر كان فريق من علماء الوبائيات قد أوصوا الملك بأن مسألة أن القطط هي سبب مباشر في الطاعون هو أمر لا يمكن تأكيده أو نفيه. وهنا رأى الملك ترجيح الفائدة فأن يحيا نصف شعب بوفرة القمح أفضل من أن يموت كله بالمجاعة، لأن الطاعون لم يعد حاضرا كما كان في قرون سابقة وإذا كانت القطط سببا فيه فلتقتل النصف وليحيا النصف الآخر شبعانا وصامتا.

كان لويس الخامس عشر بخلاف سلفه يقبل مناقشة الأمور بالمنطق، وأيضا كان إيجابيا في حبه الكبير لعموم الشعب الفرنسي.. هكذا يقولون.. ونسب إليه قوله "لو خيرت أن تفنى الأسرة الحاكمة ويبقى الشعب لاخترت الشعب.. ولن أمانع أن أكون فردا منهم".. أيضا ليس سهلا الحصول على تأكيد أو نفي!.

المهم أن لويس وقع على مرسوم ملكي يمنع إبادة القطط التي كانت تتم بشكل بشع وجماعي، وكانت المقابر الجماعية للقطط ثمة بارزة في تلك الفترة، فما أن يعبر زائر بمدينة حتى يشار إليه.. هنا دفنت مئات أو آلاف قبل عدة أيام.

كان التاريخ ينعكس بشكل غريب وغير منطقي.. كما يقول ميري.. وكان يعني أن القطط التي واجهت الإبادة.. كانت في فترة من التاريخ محروسة بل كانت آلهة يحرم المساس بها، ففي مصر الفرعونية تصل عقوبة من يقتل قطا إلى الإعدام.. ويرى أن السبب لا يتعلق بالفائدة أو النفعية المباشرة في كون القطط تنظف المزارع المصرية المجاورة للنيل من القوارض فيضمن الفرعون نجاح الزرع، فهناك ما هو أبعد من ذلك.. فثمة أمر غامض.. كيمياء مجهولة إلى الآن.. لهذا فإن كلمة "المجهول" كثيرا ما وردت في كتاب ميري.. ولا ننسى أنها عنوان كتابه.

يكتب ميري: "كان الموت عقاب من يقتل قطا.. غير أن المفارقة هي أن الشعب المصري وشعوب كثيرة في أفريقيا أصبحت اليوم تتشائم من القطط.. بشكل دقيق من القطة السوداء التي كانت مقدسة ذات يوم.. وربما فسّر الأمر أن أوروبا التي حصدها الطاعون صدّرت هذه الرؤية السلبية لشعوب وادي النيل.. حيث أخذ القط الأسود رمزية الشيطان الفاسد..".

ويتساءل الدكتور ميري: "من الصعب جدا أن نفهم تاريخ القط بشكل منطقي وواضح، فهو غامض ومجهول ومحاط بالأساطير والخرافات.. ففي أقصى الشرق مثلا في الصين، هناك

أسطورة تقول إنه كلما كان القط قبيحا جلب لصاحب البيت الحظ الوفير.. ويزداد قبح القط كلما كان أسودا بعرف الصينيين.. والاعتقاد نفسه منتشر في اليابان.. أيضا يؤمنون بأن هروب القط من البيت يعني دماره وجلب التعس والبؤس والفقر.. أما هنا قريبا من فرنسا في بلجكيا فهناك اعتقاد سائد بأن الفتاة إذا مرت فوق ذيل القطة أي وطأته فإنها لن تتزوج أبدا وستظل عانسا إلى أن تموت.. وفي الإطار الطبي وفي بلدنا فرنسا فلا أحد يجهل أن القطة هي أفضل علاج لمرض الروماتيزم.. يكفي أن تكون معك قطة بالبيت أو تنام إلى جوارك بالغرفة لتشفى من المرض".

ويكتب أيضا: "إذا كان الفراعنة يخلدون القطط الميتة بتحنطيها حيث تصبح مومياوات، تماما كالملوك حتى تنهض معهم في العالم الآخر وفق اعتقادهم.. فإن حضارتنا خلدت القطط بشكل آخر في الصور وأسطوانات الغناء واللوحات الفنية كما في أعمال بالتوس وفي الأشعار كما عند بودلير.. لكن يظل الفراعنة هم من ابتكروا تخليد القطط كما في مئات اللوحات التي وجدت في المعابد.. كيف لا يفعلون ذلك وحياتهم انقلبت رأسا على عقب بدخول هذه الكائنات فيها.. لقد تغيرت الكثير من طقوسهم وعاداتهم في الأكل والشرب والتغوط وممارسة الجنس وتعلم النظافة من القطط.. وهي أمور يمكن قولها بسرعة.. ولكن مراجعتها بدقة تتطلب وقتا طويلا.. وهاهي القطط نفسها تلعب الدور القديم نفسه في العالم الجديد"..

-18-

كان الرجل ضخم الجثة ذو الشارب الكثيف، قد غادر العيادة. وإن كان قد أخبر نيرون أنه يعمل ممثلا في المسرح، إلا أن لم يكن صادقا.. فـ "بيرو بيرو" وهذا هو اسمه.. كان شخصا مختالا، من الصعب لمن لا يعرفه جيدا أن يفهمه جيدا.. وهذا ما وقع فيه نيرون.. وهو أحيانا يكذب.. أو كثيرا.. ليس ثمة فرق.. ولكن أحيانا يتفتق ذهنه بأفكار عجيبة كتلك الفكرة التي أهداها للطبيب البيطري.. ريلكه.. أو نيرون الذي يحلم بأن يكون ريلكه زمانه.

ولكي نفهم "بيرو بيرو" جيدا فهو يعمل رساما في مجلة "تان تان" التي تحتل شقة صغيرة في طابق شبه منسي من عمارة قديمة آيلة للسقوط مباشرة وراء شارعين من عيادة نيرون. وعندما قال نيرون للرجل "أظن أنني شاهدت لك مسرحية"، كان بالفعل قد شاهده ولكن ليس في المسرح وإنما في صفحات مجلة "تان تان" التي أصبحت هوس جيل كامل في الستينات تحديدا وأوائل السبعينات واستمر مجدها إلى منتصف الثمانينات تقريبا.

كان "بيرو" يرسم قصصا مصورة يوقعها باسم "بيرو.. بيرو" بجوار رسم ساخر لوجهه كالذي رآه نيرون، وكثيرون يظنون أن اسمه مستعار غير أن من يعرفونه جيدا من زملاء العمل وهم خمسة فقط يحررون المجلة، يدركون أن هذا اسمه الحقيقي.. وقد روّج الرجل ضمن من روجوا لثقافة القطط في تلك الفترة، ومضى إلى أبعد الحدود مع تلك الصرعة، باختلاف بسيط عن كثيرين أنه كان يفعل ما يفعل وهو يسخر من نفسه، فلم يكن بيرو جادا في أي شيء يفعله في الحياة تقريبا.

أيضا كان بيرو يقوم بعمله هذا مقابل المتعة لا غير، صحيح أنه كان يقبض راتبه من مالك المجلة كل شهر، غير أنه نادرا ما أحصى كم قبض، وكان ينفق ببذخ على الحيوانات التي

يربيها في حديقة منزله الصغير جدا في ضاحية باريسية. ولأنه فقد والده وهو في رحم أمه وحمل اسم والده بعد مولده ليكون "بيرو.. بيرو"، ولأنه فقد والدته أيضا وهو في العاشرة، فقد أصبح يتيما، ومن تلك الفتى عاش حياته وحيدا وعصاميا اعتمد على نفسه تماما ولم يبحث عن قريب له أو صديق. فأيضا لم يكن له أصدقاء، ولهذا كان يقضي جل وقته في البيت مع القطط والكلاب ويسر بالحديث معها حتى لو أنها لم تفهم ما يقول. المهم أنه يتكلم وهي تحرك أذيالها. وكان ما يتكلم ويثرثر به مع القطط والكلاب يشكل محور القصص التي يرسمها ويعلق عليها في المجلة كل أسبوع.

واحتفظ بيرو بحياته غامضة، فلا أحد قال أنه رآه أو قابله.. وكان يتهرب من مقابلة الأشخاص الفضوليين الذين يقتحمون مكتب المجلة بحجة أنهم يريدون توقيعا من بيرو على بنطاليهم أو قمصانهم لأنه مشهور. وكان ملاذه الذي يأوي إليه ليفر من أي فضولي أنه يدخل الحمام ويستغل الوقت في ابتكار فكرة لقصة جديدة.

الآن وبعد أن غادر عيادة نيرون، كان يرغب في أن يمر على سوبرماركت لشراء شرائح من اللحم لحيواناته، وبعدها سوف يذهب بالطبع إلى البيت ليطعم القطط والكلاب ومن ثم ينام قليلا، ليذهب لفترة مسائية إلى المجلة لأن مالك المجلة أخبره أنه يريده لأمر هام. وفي الوقت المحدد، ما دامت الدقة هي ديدنه، فقد كان بيرو أمام المالك، الذي كان يأتي إلى المجلة في أوقات متفرقة ودون سابق موعد. فقد كان مشغولا في أمور كثيرة أخرى، لا يعرف عنها بيرو شيئا، وقد سمع زملائه يقولون مرات متفرقة أن "مسيو فيكتور رجل أعمال كبير.. يعمل في العقارات وفي كل شيء" وأحيانا يهمسون بأنه يدير شبكة دعارة للسحاق. كانت أمور مثيرة لأي إنسان يتمتع بالفضول، لكن بيرو لم يعرها اهتماما.

جلس فيكتور بقامته القصيرة وجسده الممتلئ تماما كبيرو شكلا إلا أنه حليق الشارب.. جلس تماما بعد أن عدل الكرسي العريض، الذي هو كرسي بيرو أصلا، في حين استند الرسام على الطاولة واقفا، قبل أن تحضر أحد زميلاته بالمجلة كرسي آخر ليجلس عليه، وتذهب على الفور بإشارة من فيكتور أنه لا يرغب في أن يسمع أحد حديثه مع بيرو.

لم يسبق لبيرو أن جلس وجها لوجه مع المالك كهذه الجلسة، صحيح أنه يقابل الرجل، غير أن هذه المقابلات تتم دون أدنى اهتمام من الرسام الذي يعكف على عمله ولا يلقي لفيكتور بالا. ورغم أن زملائه قاموا بتنبيهه كثيرا أن يقوم بأي حركة يشعر فيها فيكتور بأنه مهم وأنه رب العمل الذي يمنح المال، إلا أن بيرو كان يعلق ببساطة: "ليذهب إلى الجحيم.. أنا أعمل بعرق يدي.. ولن أعدم عملا في فرنسا"، ويضيف ضاحكا بصوت مجلجل بغير عادته: "ما دامت القطط تشغل الفرنسيين هذه الأيام فالعمل متوفر لمسيو بيرو".

ماذا يريد فيكتور بالضبط؟ ليس لبيرو أدنى فكرة! وها هو ينتظر أن يبدأ الرجل عرض الموضوع مباشرة.. وهو يتخيل أن أناس أمثال فيكتور لا يضيعون الوقت لأنهم يفكرون في كل ثانية على أنها فرنك.. إن لم تكن عشرة أو مئات الفرنكات. وبالفعل شرع المالك في الكلام: "بيرو أنت إنسان مبدع.. أنا أعرف قدراتك.. صحيح أن شكلك لا يليق بمبدع.. تبدو كجزار.. إلا.."

قبل أن يكمل كان قد نظر ليرى ردة فعل بيرو، لكنه بيرو قابل إبتسامة فيكتور ومزحته التي بدت حمقاء، بالبرود.. ذلك لأنه لا يهتم أصلا بأي شيء.. وهو أساسا يسخر من نفسه كثيرا.. لكن ما فكر فيه أن تشبيه الرجل يظل بدائيا، وقال لنفسه: "لماذا لا يقرأ هذا الحمار مجلته لكي يعرف كيف يمزح بطريقة مبتكرة".

لأن بيرو قابل المزحة بالصمت وعدم المبالاة، فقد التزم فيكتور الأدب والجدية وواصل دون أن يعتذر: "هناك عمل هام وسريع وسيحقق لك أموالا طائلة".

لم يتلهف بيرو ليسأل عن طبيعة هذا العمل كما توقع فيكتور.. فقال الأخير لنفسه: "ياله من كائن عجيب هذا البني آدم لا مشاعر له".. كان يعتقد أن الشيء الوحيد الذي يحرك المشاعر هو المال.

في الواقع وعندما يتعلق الأمر بالمشاعر، فإن فيكتور كان إنسانا لا قلب له حتى لو أنه كان يمزح أحيانا، وبيرو بطريقته الساخرة في رؤية العالم يفهم ذلك ويصوّر فيكتور كما لو أنه جزء من رسم كاريكاتوري كبير يكون فيه بالتحديد قطا تعيسا ضخم الجثة حليق الشارب، يلحس بقايا الحليب في طنجرة قذرة أمامه.

وهذه الصورة بالضبط سبق لبيرو أن رسمها في قصة نشرت بالمجلة، لكنه لم يكن يتصور أنها سوف تنطبق على مالك المجلة ذات يوم.

أنهى فيكتور الاجتماع على عجل وقد وضحت المهمة أمام بيرو.. لكنه متردد هل يقبل بها أم لا؟ وإن لم يقبل فسوف يكون أمامه خياران أن يترك العمل ويتبطل أو يبحث عن عمل جديد وهي مهمة ليست بالسهلة. وإذ كان يمزح سابقا مع زملائه أنه لن يعدم عملا في البلاد، فالأمر الآن ليس بهذه السهولة. وعليه أن يقرر في حدود يوم واحد، وهي المهلة التي منحها له سيده، وهي زمن كاف إذا ما كانت الأمور متضحة في ذهنه. لكنه أي بيرو كان مشوشا إلى أبعد الحدود، فهي المرة الأولى التي يجد نفسه فيها أمام تحد أخلاقي.

وبدا في الاقتناع للمرة الأولى أيضا أن فرنسا فسدت حقيقة. كثيرا ما سمع عن الفساد وتدني القيم وانحطاط البلد برمتها إلى الحضيض، لكنه كان من المدافعين عن سياسة ديغول دون أن يكون مهتما بأن يعرف تفاصيلها بشكل جيد. فصورته عن الجنرال قديمة جدا ترجع إلى الطفولة ساعة كان ديغول بطلا قوميا حرر فرنسا من النازية وأنقذها من الموت، وكان الكل يهتف باسمه. هم الآن غير واثقين، أي الفرنسيين من الرجل، ونادرا ما يجهرون، لقد تعلموا الخوف.

كانت الكلمة التي واجه بها بيرو نفسه في الليل وهو يفكر في القرار المناسب، ويتذكر جيدا تهديد فيكتور المبطن: "لن أجد أفضل منك لهذه المهمة.. وإذا وجدته فسوف يكون أنت.. وتذكر أن العمل شيء أساسي في حياة الإنسان المعاصر.. هل تريد أن تأكل من صناديق القمامة مثل الغجر يا بيرو".. صحيح أنه نطق بالعبارات الأخيرة مازحا.. غير أنها تلك المزح التي تؤخذ بمحمل الجد فأمثال هؤلاء المسيطرون على العالم إذا كان لهم أن يتندرون على الآخرين فهم جادين إلى أبعد الحدود، فكر بهذا الشكل وتوصل إلى نتيجة، عليه أن يسير مع الغالبية. ليس في فرنسا اليوم من له قيم أو أخلاق. وبيرو لن يكون استثناء.

-19-

في اليوم التالي أعلم فيكتور بالموافقة.. ولم تمض سوى دقائق معدودات حتى قاده المسيو الكبير بجواره في السيارة العريضة التي لم يتأكد بيرو من ماركتها فهو لا يفهم شيئا في السيارات، ولم يفكر أصلا أن يمتلك واحدة. لكن فيكتور قال قبل قليل وهما يصعدان مقدمة المركبة: "ستكون لك واحدة كهذه.. إذا نجحت في المهمة". كان فيكتور يسميها مهمة، وإن كان قد قال في البداية: "هو عمل".. فكر بيرو أن أمثال هؤلاء الناس يتعاملون مع الحياة على أنها شلل وعصابات شرسة كل يناضل بقتل القيم والأخلاق ليكون هو الفائز .

وصلا إلى معبد في ضواحي باريس لم يسبق لبيرو أن زار معبدا أو صلى لله، ولا يتذكر أن الإله مثّل شيئا مهما في حياته ذات يوم. فهو لم يعش حياة يتوقف فيها ولو لحظة ليتأمل إن كان ذلك الخالق موجودا أم لا. الآن سيدخل معبدا ولكن لهدف غير نبيل.. وشعر للحظات بشيء من الخوف الذي أحسه فيكتور لكنه لم يعلق. وتابعا السير عبر دهليز شبه مظلم في المعبد إلى أن وصلا صالة شبه مضئية، بقناديل كأنها أهلة سماوية معلقة في السقف. وهناك رأى بيرو المشهد الذي لم يكن يتخيله لو حكي له. هاهو يرى فرنسا الحقيقية.. الجانب الآخر المظلم الذي كان زملاؤه في المجلة يتحدثون عنه. وكاد أن يشعر بالغثيان وهو يشاهد نساء عاريات تماما يقفن في صفوف متراصة وهن يتمايلن وأردافهن تحك بعضها بعضا.

"ياللهول" قال لنفسه، وقال أيضا: "إذا كان فيكتور يعلمنا أن نضع الجيل الجديد أما قيم فرنسا الحقيقة.. وأخلاقها وطهارتها فما الذي يحدث هنا.." وللحظات ظن أنه ربما كان خارج حدود الزمن داخل لوحة من لوحات الفن السوريالي أو المدارس الجديدة في الفن التي تمجد العري، تلك التي لم يكن مهتما كثيرا بمعرفة الفروق بينها، فهو يصنف نفسه فنانا فطريا.. لقد ولد هكذا ليكون فنانا.. أما بعد ذلك، فليس مهما وليس مفهوما بالنسبة له.

قال له فيكتور: "تقدم بيرو.. لا تخف.. أعرف أن الفنانين أناس شجعان ستقابل هنا نساء كنت تحلم برؤيتهن في حياتك... هذه الفرصة الوحيدة لك فلا تضيعها".

تقدمت منه فتاة بارعة الجمال بشفتين موردتين، وبدت كما لو أنها قط صغير وهّاج المنظر، وكانت عيناها تشعان بريقا. هي عارية تماما وتحمل كأسا من شراب لم يتبين بيرو ما هو، فهو ايضا ليس لديه خبرة في أنواع الكحول وقليلا جدا ما جربه. وشاهد بيرو كيف أن فيكتور احتضن الفتاة ورشف من كأسها رشفه وقبّلها، ثم سألها سؤالا معينا، وكان الصوت غير واضح وسط ضجيج النساء العاريات، والموسيقى الصاخبة. موسيقى فرقة "ملك القطط". وأشارت الفتاة إلى واحدة أخرى، فثانية فثالثة، وبعد أقل من دقيقة كانت خمسة نساء يقفن أمامهما، لا رجال آخرين في القاعة.

سأل فيكتور بيرو: "أي منهن يمكن أن يعطي وجهها إيحاء بالهوس الذي تعيشه فرنسا"، كان يسأل وهو يضرب على أرداف النساء، كلهن جميلات بلا أدنى شك كما قالت مخيلة بيرو الذي شعر لأول مرة أن قضيبه النائم طوال السنوات الماضية بدا ينتصب الآن. لكن أحداهن شعرت بالأمر فقالت له هامسة: "لا مكان للرجال هنا.. لا تضيع الوقت.. ولتشرع في عملك".

وأشار إلى أحداهن قائلا: "هذه.." وعلق فيكتور: "تعرف أن خبراتي الفنية صفرا.. ولهذا كان لابد من الاستعانة بك.. والآن سيبدأ العمل". وبيده أخذ المسيو الفتاة الطويلة التي تصلح لأن تكون عارضة أزياء وأدخلها في قاعة صغيرة لها باب فولاذي معتم مفتوح على الصالة الكبيرة، وكان وراءه بيرو، وهناك بدأ مهمته في الرسم.. رسم الموديل الذي سيكون أيكونة لمشروب جديد ستروج له إحدى شركات فيكتور.

كان الاستكش جاهزا خلال ساعتين تقريبا.. ووجد بيرو نفسه لأول مرة مقابل امرأة.. في السادسة والعشرين من عمرها كما أخبرته وأنها تعمل طاهية في مطعم ليلي.. لكنها اليوم إجازة حتى لو لم يكن هذا اليوم نهاية الأسبوع، فقد كانت واثقة أنها ستفوز بالمسابقة وأنها ستكون الأيكونة التي سيراها الملايين في فرنسا وهم يحتسون الشراب الجديد، الذي لم يوضح لهن فيكتور هويته، ولهذا السبب أخذت إجازة عن العمل. وانتبه بيرو إلى أن سيده يحمل هنا اسما مختلفا كما سبق أن أخبره، وقال له بأن يكون حذرا. لكنه أخطأ مرة واحدة وبدلا من أن يقول للفتاة "كلافيل" وهو الاسم المتعارف عليه بين الفتيات هنا، قال "فيكتور".. لكن الفتاة كانت ذكية وآثرت الصمت وهي تعدل ساقا على الأخرى، تصلح من وضع جلستها.

كان منظرها يشعل الإثارة.. لكنها هي لا تثار.. وتخيل بيرو أن المشكلة قد لا تتعلق إلى حد بعيد بكون الفتاة سحاقية لا رغبة لها في جنس الرجال.. وإنما السبب الواضح هو بيرو نفسه بجسده الضخم وصلعته وشعره القصير.. "على كل حال ليس لامرأة أن تعشق جزارا، ففيكتور كان على حق" قال سرا، وواصل عمله إلى أن دخل فيكتور ليعاين الرسومات ولكن ليس بشكلها النهائي.. لأن عملا كثيرا ينتظر الرسام الجزار لكي يبسّط الرسم ليمزج فيه بين وجه الفتاة ووجه قطة جميلة بهية.

في المساء قال بيرو لنفسه وهو يشهق بصوت مرتفع: "يالك من إنسان بسيط.."، وعلم أنه أقلق نفسه بموضوع لم يكن يستحق ما أنفقه من تفكير ليل أمس، فالأمر كان في غاية البساطة. وعلى هذا الأساس كان يتعامل فيكتور.. وقد علق له وهما عائدان حيث أوصله إلى بيته: "هذه فرنسا الجديدة" وضحك كثيرا قائلا: "ما أروعك يا ديغول". أما بيرو فقد فهم أنه لن يفكر بعد الآن في الأخلاق إذا لم يكن قد فكر في الله من قبل، وإذا كانت معابد الله تتخذ بيوتا للدعارة الليلية.

-20-

يتذكر بالتوس جيدا تلك الدعوة التي وصلته عبر البريد، وكيف أنه جلس في الصف الأمامي في الحفل مع كبار الساسة الفرنسيين في حكومة شارل ديغول، ومع مثقفين كبار كان على رأسهم سارتر الذي عُرف كمعارض لنظام ديغول، لكن سارتر أراد أن يحفظ جميلا بأن يكون هنا ويجلس إلى جوار الرئيس لسبب بسيط أن شارل كان قد رفض طلبا لمستشاره الأمني قبل عدة أسابيع باعتقال المثقف الوجودي الكبير والفيلسوف بتهمة أنه يحرض ضد استقرار فرنسا.. وأنه يتزعم جماعة سرية تعمل لهدم مشروع الجمهورية الخامسة. كانت القصة حديث الشارع الفرنسي فلا خبر هنا يخفى، لكن كما يقول سارتر نفسه: "كل شيء يبقى مدفوع الثمن".

لم يُدعَ بيرو للمناسبة، لأنه في تقدير فيكتور لا يستحق أن يحضرها ولأنه إنسان ضئيل لا قيمة له إلا خدمة أسياده، وفي الواقع لم يكن فيكتور يحترم البنى آدميين الجبناء على شاكلة بيرو، فقط

كان يحترم موهبته وفي حدود الفائدة، ولنا أن نذكر أن ما تلقاه بيرو نظير الأيكونة "الهائلة" - التي مثلت شعار الشركة والمشروب الجديد - كما وصفها ديغول في الحفل وهو يشرب أول جرعة من المشروب، فقط مائتي فرنكا.. مبلغ تافه على أية حال.. وبيرو نفسه لم يقل شيئا.. وصمت لأن راتبه لم يكن يتعدى مائة فرنكا نظير مجلة هو صانع أساسي لمجدها تربح ملايين الفرنكات سنويا.

ظل بالتوس يراقب الحاضرين وهم يدخلون، فقد جاء مبكرا للحفل الذي أقيم في مبنى الأوبرا الشهير في مدينة "بوردو" الواقعة في جنوب غرب فرنسا والتي تعتبر من المدن الأشهر عالمياً، بين المدن الفرنسية، وبعد باريس مباشرة. وكان سبب حضور بالتوس مبكرا أنه اتخذ المناسبة فرصة لسياحة بصرية في عمارة "أوبرا بوردو"، التي يرجع تاريخها بناؤها إلى 1780م، وذلك قبل الثورة الفرنسية بأقل من عشر سنوات. وفي زمن وجيز انتبه الرسام الذي يزور المكان لأول مرة رغم أنه كثيرا ما فكر فيه ورأى مجسمات وصورا له في المجلات والكتب، أن سقوف القاعة الرئيسية مزخرفة بأشكال تتخذ أشكال قطط متراصة في صفوف متقاطعة وبعض القطط كانت تحمل سيوفا، وهو أمر أثار استغرابه فرمزية السيف ليست واردة في الثقافة الأوروبية الحديثة إن لم يكن في فرنسا بالتحديد. ولم يكن يعلم أن تلك المدينة استعمرت من قبل العرب المسلمين على يد القائد عبد الرحمن الداخل في القرن الثامن الميلادي، ورغم أنه لم يبق فيها طويلا إلا أنه خلّف فيها أجيالا من العرب الذين أصبحوا فرنسيين بإمتياز ولا أحد يتذكر الآن منهم أو يعلم بدقة أن أحد أجداده كان قد جاء من الصحراء البعيدة قريبا من مكة.

كان فيكتور لويس واحدا من أشهر المهندسين المعماريين في تلك الفترة التي بنيت فيها الأوبرا وكان جده عربيا دون أن يهتم المعماري كثيرا بذلك أو يعلمه جيدا، وقد ظل العرب يحتفظون في طقوسهم ببعض من بقايا الثقافة العربية وجينات عبد الرحمن الداخل دون أن يفكروا بذلك كضرورة، ومن ضمن ما كان قد عاد للظهور في دماغ فيكتور وهو يصمم الأوبرا بناء على طلب الماريشال "دي ريتشيليو" حاكم المدينة وقتها، صورة السيوف وهي محمولة على أيادي القطط. لديه مبرر لزخرفة المكان بالقطط لأن الماريشال يريد ذلك دون أن يوضح السبب، لكن ليس لديه سبب واضح لأن تكون هناك سيوف بدلا عن أي نوع من الأسلحة الأخرى، وقد اقترح الماريشال أن يكون بيد القطط فتائل، وهي الأسلحة السائدة يومذاك في فرنسا، والتي تقوم على تعبئة البارود في درج يسد بخرقة بالية، ومن ثم يشعل الفتيل ويصوب الجسم كاملا بالضغط على زناد يرتد للوراء فيندفع الجسم للأمام نحو العدو فيحرقه. وقد استخدم هذا السلاح في الثورة الفرنسية. بعد نقاش لم يطل أقنع المهندس فيكتور، الماريشال بأن السيوف هي الأكثر جمالية ووافق الأخير، بعد أن تلقى رسالة من الملك تفيد بأن الفكرة رائعة.

رغم ان الأوبرا مصممة لتستوعب ألف شخص إلا أن الحضور لم يتعدوا الثلاثين مدعوا، فالحفل كان خاص جدا، ومسيو فيكتور مالك شركة الشعير الذي حمل اسم "القط الفرنسي".. كان حريصا على انتقاء المدعوين.. طبعا بالاستناد إلى المستشارين الذين يعملون معه فالرجل كان صادقا مع نفسه أنه لا يعرف كل شيء.. غير أنه أعطاهم خطوطا عريضة: "دعونا من نجوم السينما.. أو عارضات الأزياء.. أو لاعبي كرة القدم.. أريد الناس المؤثرين بحق في تشكيل العقل الفرنسي". وفهم مساعدوه المطلوب.. فيكتور يريد الطبقة النخبوية التي تصنع فرنسا وهي طبقة مكونة من الشعراء والرسامين والكتاب والفلاسفة، "فهؤلاء هم الذين يحركون

فرنسا حتى لو أنهم كان الأقل فائدة مادية، وهو أمر يطول تفسيره وقد يصعب"، كما سمع فيكتور من أحد المساعدين يحدثه.

لهذا السبب كان هناك بالتوس وسارتر، وشتراوس وكان الساسة والوزراء لأن هذا ضروري بنظر فيكتور لتصريف الأمور دون شوشرة، وكانت نساء جميلات يخدمن الضيوف، لا أحد بالطبع كان سيظن أنهن سحاقيات بدرجة "شرف" في جمعية "سافو". وقد بدون وهن يتحركن بخفة وسط الحضور ويقدمن شعير "القط الفرنسي" كما لو أنهن قطط كبيرة الحجم، رشيقة، وكانت أزياؤهن براقة وسط الإضاءة الخافتة، يشعر من ينظر إليها بارتداد بصري، فيحرك عيناه بحثا عن نقطة مظلمة في القاعة الفسيحة.

ووقف ديغول على المسرح، يمتدح الأيكونة المرسومة على علب الشعير، أكثر من مدحه لمذاق الشعير، وقد التفت صحفي موهوب لهذه النقطة فعلق في اليوم التالي في مانشيت عريض: "ديغول أعجب بالقط ولم يعجب بالشعير". وكان هذا العنوان مزعجا جدا لفيكتور فقد رأى فيه دعاية سيئة لمشروبه الجديد الذي جاء ليماشي الموضة، وكان أكثر ما استفزه من أين حصل الصحفي على هذه المعلومة، فلا أحد من الإعلام دعي للمناسبة، فقد وزعت شركة "القط الفرنسي" إعلانات بحجم صفحة كاملة مدفوعة الثمن على الصحف، واصطحبت ذلك بنشرة خبرية مقتضبة مصحوبة بصورة لديغول وهو يفتح العلبة بطرف أصبعه وإلى جواره سارتر وبالتوس. وقد رفض ديغول طلب فيكتور بنشر صورة منفردة له يكتفي بها في الترويج، وأصر على الصورة التي كان سارتر مبتسما فيها وجها لوجه مع الرئيس المبتسم أيضا.

تخوف فيكتور لم يكن في محله، لأن الفرنسيين أحبوا شعير "القط الفرنسي" وأصبح جزءا من مزاجهم اليومي إلى الثمانينات قبل أن يغلق المصنع نهائيا بسبب إفلاس فيكتور الذي تضعضع وضعه بنهاية عهد ديغول. لكن الأيام الأولى من الترويج كانت عسيرة لأن كثيرا من الحديث كان يدور حول ظهور سارتر إلى جوار ديغول، أكثر من الحديث عن الشعير. وهو أمر قال فيه الفرنسيون الكثير، لاسيما أن أخبار معارضة الفيلسوف الوجودي كانت لا تدس، لكن أيضا لا شيء يندس في باريس بالتحديد. وكان كثيرون قد علموا بتناقل الأخبار أن المسألة لا تعدو لقاء عابرا وأن المستفيد هو فيكتور.

-21-

يتذكر بالتوس جيدا أيضا أن سارتر عندما سلم عليه قال له بغضب: "أوقف هذا السخف الذي تفعله.. أنك يا رجل تحرق فرنسا مع هذا المعتوه ديغول".. فيما بعد ربما بشهر أو شهرين لا يتذكر بالتوس جيدا، كان قد قابل سارتر، وهو أمر يثير الشبهات.. لكنه كان حذرا.. وكان اللقاء بناء على طلب سارتر الذي أرسل وسيطا أخبر بالتوس أن الفيلسوف يرغب في لقائه بمكتبه في الجامعة لأمر ضروري.

خاف بالتوس من فكرة اللقاء بالجامعة فذكرياته في السوربون كانت تعسة، وبناء على طلبه تعديل الموقع تقابلا في مقهى لا يعرفه إلا القلة وليس منهم رجال أمن ديغول بالطبع. فقد أنشأ شارل جمهورية أمنية كبيرة الأذن لاسيما بعد تعرضه لمحاولة الاغتيال الفاشلة في مطلع حكمه وعشرات المحاولات الأخرى. غير أن بالتوس لم يكن خائفا فليس لديه ما يخسره، أو يكسبه،

فهو في النهاية فنان ولن يكون العالم سيئا لو وضعوه في سجن وتركوا له القطط تعيش معه ووفروا له عدة الرسم. أما سارتر فقد كان يعلم بأنه مراقب وبشدة، غير أنه يعلم أيضا أن ديغول لن يتصرف ضده لأن مخادع خدع كل فرنسا لكنه لن يخدع فيلسوفا مثله، فسارتر كان يعرف لعبة القط والفأر مع الرئيس، ويفهم جيدا أن شارل إذا قام بأي خطوة سلبية ضده أو أمر باعتقاله أو محاكمته فهذا سيجعله يخسر الكثير، لاسيما أن ديغول يريد أن يحفظ صورته الزاهية في نظر الناس الذين بدأوا يعرفون وجهه الحقيقي.

كان سارتر يدرك أن ديغول محاط بالكاتبين أندريه مالرو وفرنسوا مورياك الذين يجعلناه كيف يحافظ على توازنه وإن كان في بعض الأحيان يرتكب حماقات وأخطاء لأنه لا يرجع إليهما. وكان سارتر يدرك أكثر أن مالرو ومورياك هما تلامذته الذين يعشقونه سرا، ولا يمكن لهم أن يؤمنون بغير فرنسا التي سوف يصبح شعبها كله وجوديا ذات يوم. كانا إذن يؤمنان بمباديء الوجودية، لكنهما لا يصرحان بذلك. وكانا يطالعان كتب سارتر سرا، ولم يقابلاه منذ سنوات ما قبل مجئ ديغول إلى الحكم حتى لا يثيرا الشبهات حولهما.

أول ما قابل سارتر بالتوس في المقهى، قال له قبل أن يجلسا: "أخبرتك في بوردو أن توقف العبث.. لكنك غير مكترث.. ما يحدث في فرنسا أمر خطير.. لا أحد عاقل يتوقف ليفهمه"

كان بالتوس يسمع بإصغاء وهما يرتشفان القهوة، وأشعل سارتر سيجارة مارلبورو الأمريكية قائلا: "حتى التبغ الفرنسي تشوه بعد أن أدخلوا فيه الغش ورسموا رؤوس قططهم هذه في الباكيت.. ولهذا أدخن سجائر فيليب موريس".

لم يعلق الرسام، في حين أكمل سارتر: "بالنسبة لنا كمثقفين هناك دور تاريخي.. أعرف أنك لا تؤمن بالمبادئ التي أؤمن بها وأنك قد لا تحترم أفكاري لكن على الأقل هناك نقاط يمكن أن تجمعنا سويا.. فأن تكون فنانا هذا يعني أنك تفهم في الفلسفة وفي الشعر وفي الحياة"

علق بالتوس: "لا أفهم مسيو سارتر المقصود بالضبط؟"

رد سارتر: "أنت تفهم جيدا مسيو بالتوس.. لكنك تدعي الغباء.. يجب أن تميز بين مستقبل أمة ناضلت لتصنع أكبر ثورة في التاريخ الإنساني الحديث، وبين مصالح نفعية مؤقتة.. دعنى أكلمك بلغة مباشرة.. أنت الذي بدأت هذا الهراء الذي يشغل فرنسا.. ويساهم في مد سطوة ديغول وتدميره للجمهورية.. وأنت القادر على إيقافه أيضا"

بالتوس: "لكنهم لا يعترفون بذلك.. هم لا يذكرون غير بودلير.. أيضا..."

سارتر مقاطعا: "هم يعرفون جيدا.. لكنهم يدعون الغباء حتى لا يدفعون لك.. أتجهل أنهم يعبدون المال"

بالتوس يكمل: "اختلف معك في قدرتي على إيقاف ما اسميته بالهراء فالذي يشعل حربا من الصعب عليه أن يسيطر عليها أو يتخذ قرارا بإيقافها في أي لحظة.. لأن الطرف الآخر سيقاوم وسيكون عدائيا"

سارتر: "لن تكون فيلسوفا أكثر مني.. وتكلم بموضوعية"

بالتوس: "لم تطرح لي خطوات عملية يمكن أن أقوم بها"

سارتر: "لم أصل إلى قناعة إلى الآن تجعلني أصدق أنك جاد في القيام بخطوة إيجابية"

بالتوس منفعلا: "هذا صحيح.. ليس لدي قناعة.. سأستمر في رسم القطط إلى أن أموت"

سارتر: "يا رجل تأمل كيف أصبحت أنت ألعوبة في أيديهم مرة يأتون بك لتحاضر في السوربون ويحولونك إلى أرجوز فتهرب من نافذة حمام.. ومرة خرى يخدعونك بأن تروّج لمشروب تافه رسمت عليه هؤلاء المومسات"

بالتوس: "لا اعتقد أن سارتر من يتحدث بهذه اللغة القذرة.. هؤلاء المومسات هن صلب فكرك الوجودي"

سارتر مقطعا بإنفعال وهو ينفث دخان السيجارة في الهواء: "الوجودية لها قيم.. ليست هي الشر ولا الشيطان يا بالتوس.. عد لتقرأ الوجودية ثم تكلم عنها"

بالتوس: "أظن أنني سأذهب.. إذا لم تقرر ماذا تريد مني بخلاف ترهاتك هذه"

سارتر هازئا: "يبدو أنك لا تفهم بشكل جيد وهذا نتاج ثقافتك القائمة على تقديس القطط.. فمن يعيش معها لن يخرج من بيته إلا وقد فقد إليتيه"

يقف بالتوس ويصرخ: "أتقول أنني مخنث أيها..."

يشير إليه سارتر أن يجلس هادئا: "من يعشق القطط لن يكون إلا... عموما ليست هذه شيم العباقرة الذين يشكلون التاريخ.. أف لفرنسا الجديدة"

يقاوم بالتوس غضبه.. فيما يواصل سارتر: "إذا لم تكن قرأت مسرحية (الذباب) فعد لقرأتها لتعلم أن ايغست أراد أن يحكم بالقمع والعنف، وأراد أهل مدينته أن يكفروا عن الجريمة التي هو نفسه اقترفها.. المشهد ذاته يحدث الآن فهذا المعتوه ديغول يريد للشعب الفرنسي أن يكفر عن جريمة كبرى اسمها الجمهورية الخامسة ليس للشعب ذنب فيها"

بالتوس: "لكن الشعب يحب شارل"

يضحك سارتر وينظر باستياء إلى بالتوس: "أنت تعرف أنه لا أحد يحب هذا الرجل وقريبا سيذهب إلى الجحيم"

بالتوس: "لا أحد يقول أنا أكره ديغول"

سارتر: "أنا أقولها.. أنا أكره هذا الجنرال الذي لا يعرف كيف يلبس سروالا .. ألا تلاحظ منظر سرواله المنكمش تحت البنطال.. لو كان يعرف كيف يحب امرأة بحق لعدل حال سرواله.. ولأخبرته بذلك.. كان منظره سيئا في الأوبرا... يريد أن يعلم الناس عشق القطط لكي يعشقوا النساء.. وهو لا يعرف كيف يمارس الهيام"

بالتوس: "ديغول أكثر الفرنسيين أناقة.. لكنك لا تفهم في هذه الأمور"

سارتر: "إذا كانت الأناقة بالطريقة التي تحاولون تعميمها في فرنسا فيمكن أن يكون كلامك صحيحا.. لكن الشعب الفرنسي سيقرر يوما ما مصيره وسيصنع ثورته الثانية ضد الأفاكين الذين يقدسون القطط.. ألا تعلم أن الملكية بدأت في الانهيار في اللحظة التي أوقف فيها إعدام هذه الشياطين الصغيرة"

وقف بالتوس في إشارة إلى أنه يريد الذهاب، وقال: "اعتقد أنني أضيع الوقت بمزيد من البقاء هنا"

قال له سارتر واقفا أيضا: "إذهب.. ولكن قبلها تذكر أن مجد فرنسا سيعود قريبا بعد أن تباد كل القطط في البلاد من جديد.. هذا الطاعون الذي تقتلون به الشعب سوف يتوقف عما قريب.. هل تفهم".

رد بالتوس دون أن ينظر للخلف وهو يغادر المقهى: "أيها الراهب الأجوف الذي يريد أن يصلح فرنسا.. إذهب لترى ماذا فعلت القطط بقطتك.. بوفوار؟!"

-22-

كانت العبارات الأخيرة من كلام بالتوس مؤلمة جدا لسارتر، فقد وصلته الرسالة التي كان الرسام يود إيصالها.. كان يريد أن يقول له ببساطة.. إذهب لتصلح حال زوجتك أولا. ومن ثم تحدث عن إصلاح الشعب الفرنسي.

"كانت سيمون دي بوفوار" أنثى في غاية الجمال، خرجت من أسرة محافظة ومن ثم وبإيمانها بفكرة الحرية عاشت حياة باريس الصاخبة، في شبابها وهي مفتونة بقدرتها على إثارة الرجال. وحلمت بأن تكون المرأة التي سوف تدخل قصر الإليزيه وتحكم فرنسا. لكن مع الأيام تضاءل هذا الحلم وتحول إلى حلم آخر أن تصبح كاتبة مشهورة، فيلسوفة على ظلال سارتر الذي نفخ فيها أنوثتها ولاحقا أشعرها أنها مجرد رجل في ثياب أنثى. مجرد رجل جميل آخاذ، مثير قادر على إثارة النساء.

كانت العلاقة بينهما في مظهرها الشكلي للناس قائمة على ألفة كبيرة، أسطورة للعشق الحر الذي يمكن أن يعكس نموذجا لفرنسا الصاعدة دائما إلى المستقبل متحررة من رهان الماضي، لكن المختبر السري الذي كانت تتحرك فيه العلاقة بين سارتر وبوفوار كان أشبه بمرجل يغلي شدا وجذبا دون أن يقدر أحد على رؤيته بشكل جيد.

كانت الغيرة تتدخل أحيانا، والرغبات الغريبة في ممارسة لعبة الحب، كان سارتر في ذلك أشبه بذلك القط البري الذي تحدث عنه شتراوس فيما بعد واتخذه عنوانا لكتابه، حاملا صورة الرجل الغربي المستعمر الذي يأتي فاتحا لأرض جديدة فيعمل على تدمير كل تاريخها وقيمها وصوغ تاريخها وفق هواه ومزاجه. وفي زمن لم يطل فهمت بوفوار الخديعة التي وقعت فيها، كيف أن ذلك الفيلسوف يريد أن يدمرها. صحيح أنه يفوقها عمرا بثلاث سنوات فقط، لكنها معه في البداية شعرت بأنها أصغر منه بكثير جدا، ولاحقا جعلها تشعر بأنها عجوز جدا. وكان ذلك في زمن وجيز.

كان الدمار الذي تفكر فيه بذهنها يقوم على فكرة العاطفة المشوهة، تلك التي ترسم جذورها باسم الإنسان والحرية والمعرفة، وفهمت أن أمثال هؤلاء الرجال الذين يتحدثون عن الحب باسم الحرية وباسم الانفتاح يتحولون في نهاية الأمر إلى كائنات شرسة بغيضة، قطط برية تكون مقاومتها بالابتعاد عنها تماما، لكن سيمون لم تكن تمتلك الشجاعة الكافية لتفعل ذلك، لأن سارتر كان قوة ضاربة، كان يعرف كيف يدمر من يعشق من النساء. وبوفوار كانت تعرف كم من النساء نمن معه قبل أن تكون علاقتهما وفي فترات التراخي في العلاقة أيضا كانت الفتيات يتسابقن نحو الفيلسوف الثوري، فكان مصيرهن أن هوين في قرار سحيق، إلا هي ستظل معبودته لأنها الوحيدة التي عرف عقلها كيف يفهم سارتر جيدا، أكثر من أي فرنسي حتى لو كان ديغول الذي كان يدعي أنه يفهم عدوه الثوري، حتى لو أنه استعان بكاتبين معتوهين يقومان بتفسير كل شيء. وديغول يأخذ أفكارهما بمحمل الجد.

مارس معها سارتر كافة فنون الجنس، وللحظات أشعرها أنه لوطي.. كانت تعرف أن بعض رغبات الرجال غير سليمة ولا يمكن أن تؤخذ بالطريقة التي تؤكد بها قولا، ولم يكن ينقصها الذكاء ولا الخبرة. فقبل سارتر كان عشرات الرجال قد رأوا فيها الجسر الذين يعبرون به إلى عالم المتعة المحلقة في فضاءات سماوية غاية في الإثارة.

إذا كانت قد جلست مع نفسها ولو لمرة لتراجع مسار حياتها وكيف انتهى بها المطاف أن تتحول إلى مؤسسة لواحدة من الجمعيات الأيروسية الأكثر سرية وإثارة في التاريخ الفرنسي الحديث، لأدركت ببساطة أن سارتر كان وراء ذلك "التيه". ولفهمت أكثر أن كتابها "الجنس الآخر" الذي كتب قبل عشرة سنوات من حكم ديغول في 1949 بإيحاءات مزيفة من سارتر، كان بداية لذلك الطريق الذي سارت إليه ليرتبط اسمها بـ "سافو" التي صعق ديغول وهو يقرأ تقرير السحاق، عندما اكتشف أن بوفوار هي زعمية تلك الجمعية.

قال ديغول لنفسه: "إنه لأمر مخز.. فرنسا تفقد عظمة نساؤها"..

وقال لمعاونه الكاتب أندريه مالرو الذي كان يراقبه من على البعد: **"فرنسا تنحط!"**

سمع مالرو العبارة وكاد أن يقولها: "سياستك هي السبب.. دعمك القوي لهذه الصرعة القططية التافهة هي..."، لكنه آثر عدم التعليق.. فالمصلحة تفترض أمورا كثيرة ضمنها أن المرء يجب أن يسكت ساعة يشعر بأن معاشه مهدد بالخطر. ومهما كان ديغول عقلانيا أو يدعي الديمقراطية والشفافية في التفاهم والحوار مع الآخر إلا أنه ذلك الأناني الكبير الذي لا يحب سوى نفسه. وفكر مالرو بناء على هذه الوجهة ليقنع نفسه بالمزيد من الصمت. لا تعليق خاصة أن المسألة تتعلق بزوجة أستاذه سارتر ومن العيب أن يطعن في من علمه أصول الفلسفة وحكمة الحياة وكيفية السير في دروبها الوعرة.

سارتر كان يعلم "السوء" الذي وصلت إليه سيمون، وأن الكثيرين من أصدقائه يتحاشون الحديث عن هذا الموضوع، غير أنه الآن يصاب بطلقة من مسدس لرجل لم يكن يتوقع أنه يعرف شيئا عن هذا الموضوع، من بالتوس بالتحديد الذي لاشك أنه يشعر الآن بالسعادة الغامرة والنشوة أنه انتصر عليه، فالضربة القاضية في هذه الملاكمة كانت من نصيبه.

كان سارتر مقتنعا بأن بالتوس قد انتصر عليه، لكنه عزى نفسه بأنه سيكون انتصارا مؤقتا..

"سوف يجني بالتوس ثمرة قلة أدبه هذه ذات يوم.. وقريبا جدا سيكون ذلك"..

كان يكلم نفسه، ويقول بصوت شبه هامس نافثا دخان السجائر الأمريكية في فراغ المقهى:
"سأغفر لك يا سيمون.. لأنني كنت السبب.. لأنني أنا الذي قلت لك أن الحرية هي الانفتاح الكلي في كل شيء.. بما في ذلك الحب.. كطقس وحياة وجنون.. وأنت نفذت النظرية بكافة حذافيرها.. وهذه القطط الملعونة ساعدتك في أن تكوني تافهة في نظرهم".

يتذكر سارتر أنه ساعة كان يلاعبها في السرير أو في الأريكة الخشبية القائمة في مدخل الحديقة تحت الصالة الصغيرة المعروشة بالعشب، وأحيانا في مخزن أدوات الزراعة، كان ينسى فرنسا وديغول وينسى كل شيء.. غارقا في عوالم أخرى مفقودة.

كان جسد بوفوار طريا كجبنة الريف الفرنسي وأبيضا كحليبه، وكانت رائحة جسدها مثل بستان ليلي في مدن لم تخلق بعد. وفي تلك الدقائق الحاسمة يكون الفيلسوف قد تحول إلى قط كبير تتحول معه الكاتبة الحالمة بالحرية إلى قطة صغيرة، يسميها "سافو".. تيمنا بتلك الشاعرة الأغريقية القديمة. وكان يحدثها عن "كيف أن أهل اليونان كانوا يسمون سافو بالقطة المتمردة.. وقد انتهى بها الحال أن تخترع عشق النساء للنساء بطريقة دراماتيكية وشاعرية"..

لم يكن يتوقع أن هذه الحديث الذي يأتي وسط الهمسات اللزجة وتحت خفوت الليل والظهيرة الصاخبة أحيانا، سوف يتحول إلى حقيقة. ولم يكن يعلم بشيء، إلى ذلك اليوم الذي كان قد خاطب فيه مجموعة من الطلاب الثوريين من أنصاره بالجماعة، أن عليهم أن يثوروا من أجل فرنسا التي تموت. فكان ان اقترب أحدهم منه وهمس في أذنيه بالكلمات التي أنهت الخطبة.

كان رجال الأمن الفرنسي يعرفون.. ودائما هم كذلك، لكنهم يستخدمون معرفتهم في الوقت المناسب. وكانت ذلك العصر المشمس أفضل وقت، وبعد أن علم سارتر شعر بوجع في بطنه، وأصابته حالة من الغثيان.. وأسرع لمراجعة بعض من الأفكار التي كان ينادي بها وكتبها:
"الحرية.. مطلق الحرية هو ما ينشده الإنسان".. وأجاب على نفسه: "سيمون لم ترتكب جرما.. إنها تمارس حريتها.. المشكلة ليست في سيمون.. المشكلة في الفرنسيين الذي يقولون أنهم تحرروا من الرهبنة وفي الواقع أن كل فرنسي يمارس دور القسيس وكل فرنسية تمارس دور خادمة الكنسية".

-23-

كانت الحرية هي الكلمة التي سعت فرنسا في تجسيدها عبر ثورتها التاريخية.. وكان ديغول قد جاء باسم إعادة تعريف الحرية للفرنسيين متكأ على دستور الجمهورية الخامسة.. وكان سارتر يناضل باسم الحرية وبالتوس يرسم بنعتها.. وبالنسبة لسيمون دي بوفوار كانت تسعى لتجسيد هذه الحرية بكل الأوجه والاشكال حتى عبر علاقتها المثلية بطالبة عندها، ثم معرفتها بعلاقة سارتر مع الطالبة ذاتها.

كانت تلك العلاقة السحاقية مع تلك الطالبة، مجرد بداية، ولم يكن يتصور سارتر أن يصل الأمر ببوفوار أن تنشيء جمعية تضم عشرات الطالبات على شاكلة هذه التي كان هو يعرفها جيدا

ساعة كانت تدخل مكتبه ويراودها وهي في غاية الاستغراب وربما السعادة، أنها تنال عشق الطرفين.. الرجل وزوجته. كان أمرا مثيرا بالفعل.. والمثير بالنسبة لها أن كليهما كان يسيمها قطتي الصغيرة.. وكلاهما كان يلقبها بـ "سافو" دون أدنى اتفاق.

كانت لحظات حميمة تجمع الطالبة مع أستاذتها بوفوار، وهي تردد مقولتها التي حفظتها عن ظهر قلب: "لا تولد المرأة إمرإة إنما تصبح هكذا فيما بعد". وكانت الطالبة تفهم تلك العبارة على أنها خلاصة فلسفة الحرية بالنسبة للمرأة في فرنسا الحديثة، فبحكمة بوفوار أدركت أن المرأة يجب أن تطلق لنفسها العنان وأن تجرب ما شاءت من الأفعال وأن تقول ما شاءت طالما هي ترغب في تكون امرأة حقيقية في نهاية المطاف. قد تحقق ذلك الأمل، وقد لا تنجح ولكنها لابد ستعثر على قيمة لحياتها. وبهذه المفاهيم الغارقة في تمجيد غواية الذات، استطاعت بوفوار أن تحقق متعتها وجسدها يلاصق جسد طالبتها، إلى أن تتحرر تماما من لذتها بعد نصف ساعة على الأقل، في مكتبها الذي سيكون مغلق الباب وقد علقت اللافتة "سيمون تمارس حريتها فلا أحد سيزعجها".. وكان الطلاب يقرؤون اللافتة فيفهمون أنها تعيش غوايتها مع الطالبة "سافو" في حين أن سيمون كانت تعتقد أنهم لن يدقوا على الباب ليزعجوا الفيلسوفة وهي تكتب أو تفكر في حكمة جديدة تضيفها للعالم. أما تلك الطالبة المغمورة فلم تضف شيئا في تاريخ فرنسا الحديثة ومدوناتها، ولا أحد يتذكرها رغم أن خلدت في العديد من الكتب ولكن بوصفها نكرة بلا مسمى.

كانت الطالبة "القطة الصغيرة سافو" تخلد للنوم في الساعات الأخيرة قبيل الفجر، وهي تفكر في حالها، وأحيانا تحدث نفسها بأنها ضحية لرجل وزوجته يكبلانها باسم الحرية، غير أنها وبمجرد أن تستيقظ في الظهيرة تكون قد تحررت من فكرة التكبيل وأدركت أنها في الطريق السوي، فما دامت رائدة التغيير النسوي في بلدها هي التي تلاعبها وتغامر معها فما معنى الخوف!.. إذن عليها أن تستمر. فمن يشكك في الكاتبة والفيلسوفة التي قادت ثورة على وضع النساء في فرنسا ودافعت عنهن بكل عنفوان وأنهن يجب أن يتحررن من الرجل تماما. وكانت "سافو" تفهم أن مطلق التحرر من الرجل ألا تمنح الأنثى جسدها لغير أنثى مثلها. وبمثل هذه المقولات والمثل التي كانت تسر بها بوفوار لطالبتها، تأسست جميعة "سافو".

في قاعات الدرس كان الطلاب والطالبات يجلسون متلاصقين، بشعر منفوش وهيئاتهم كقطط، فلا واحد منهم يخرج من مساكن الجامعة الداخلية أو يغادر بيته إن كان من سكان باريس قبل أن يتأكد تماما أمام المرآة أنه تحول إلى قط حقيقي. وكان من الصعب على أي منهم ذكرا كان أم أنثى أن يتحرر من الصرعة التي تجرثمت بها فرنسا. أما بوفوار فكانت تبتدر المحاضرة في القاعة بأبيات من الشعر لسافو الأغريقية:

***

أبلغي كل إنسان

الآن، اليوم، بأني

في عذوبة سأغني

لمتعة من صادقتني

***

ولسوف نستمه معا بالغناء

مثل من تجد

بالخطايا، وربما في الحماقة

والحزن ما ينسيها

***

كانت "سافو" الطالبة، وهي تسمع سيمون تنشد هذه الأبيات، تشعر كما لو أنها تخاطبها هي دون غيرها من الجالسين.. لكنها تتذكر أن هذه الأبيات لسافو الأغريقية وأن الطلاب يحفظونها ويراجعون تأويلاتها بشرح بوفوار، لأنها ربما ترد في أسئلة امتحان منتصف السنة الدراسية. أما فيما بعد وعندما تخلو الأستاذة بطالبتها فسوف يتحول الأمر لطرفة، فسيمون تنشد الأبيات وهي تراوغ "سافو" الجديدة.. وهي تئن مع اشتعال اللذة قبل أن تصرخ صرخة مكتومة.. "الحماقة... الحزن.. النسيان". وما أن يهدأ الحال تهرع الاثنان إلى ارتداء الملابس، فالطالبة لا سروال لها.. وأيضا الأستاذة.. التي كانت تفضل التنورات التي تبدو بهن كفتيات الريف الاسكتلندي. ومن ثم تنشد بوافور بقية القصيدة في حين تكون "سافو" قد غرقت فيما يشبه التنويم المغنطيسي:

***

كانت واقفة بجوار سريري

بصندليها الذهبيين والفجر

وفي ذات اللحظة أيقظتني

***

اسائل نفسي

ماذا، ياسافو، بمقدورك

أن تمنحي لمن

تمتلك كل شيء

كأفروديت؟

***

وأجيبها

سأحرق قربانا

من عظام الفخذ المكسورة بالدهن

لعنزة بيضاء

على مصلاها

***

أعتراف

أنني عشقت قد ما أرهق

حالي. وآمنت

بما للعشق

من نصيب في تألق الشمس وعفتها

***

في الظهيرة

والأرض

تضيئها ألسنة لهيب

يتساقط كرمح عمودي

يطلق صرصار الليل

- عاليا كقذيفة-

غناءه بحركة من جناحيه

***

أخذت قيثارتي وأنشدت

تعالي الأن،

يا صدفة سلحفاتي المقدسة: كوني

آلة صادحة

***

برغم أنهن

محض أنفاس وحسب، لكن الكلمات

التي أملكها

خالدة

***

-24-

لأيام عاش سارتر حالة من التفكير السلبي تجاه مستقبل الحركة الثورية الطلابية، التي كان يؤمن أنها رغم صغرها سوف تكبر. وكان ما قاله بالتوس سببا من أسباب الوهن الذي أصاب سارتر، لكنه قاوم هذا الوضع خاصة بعد أن قدّر أن مواجهة بوفوار يمكن أن تحرره من تشوش الذهن وتعيده إلى صفائه، وبالفعل هذا ما حدث لأن سيمون كان شجاعة في قول كل شيء. وسارتر كان شجاعا أيضا لأنه كان يحبها مثلما كانت تحبه. واتفقا بعد جدل طويل أن مستقبل فكرة الحرية وخلاص فرنسا هو الذي يجب أن يشغلهما فالملذات العابرة يمكن أن تسعد الإنسان وهي ضرورية بلاشك لكنها ليست كل شيء. وحتى لو التفت إليها البعض على أنها أمور غير محمودة فيجب على الإنسان أن لا يقف كثيرا ليراجع مثل هذه الترهات التي تقال كثيرا باسم الأخلاق.

قالت سيمون لسارتر وهي تضع أمام علبة من شعير "القط الفرنسي": "مثلما سنجد أنفسنا لشراب هذا الشعير لأنه حسن المذاق.. إلا أنه يجب أن نفصل بين كراهيتنا للقطط وكون هذا الشعير فعلا لا يمكن مقاومته لأنه لذيذ فعلا".

امتعض سارتر، ورد: "منذ متى كنت تكرهين القطط.. أيتها المخادعة؟!"

كانت ردة فعله قاسية على سيمون، لكنه أخبرته: "ثق أن سافو مثلما توسعت وانتشرت سوف تنتهي.."

رد سارتر: "لا اعتقد أن ذلك سوف يحدث.. فالنظام وديغوله يريدون لسافو أن تستمر.. ديغول يريد للناس أن تنشغل بالقطط والعلاقات الشاذة حتى يتفرغ لقتل البلد ومع أعوانه يسرقون ثروات الشعب الفرنسي.. سواء تعلق الأمر باليمين أو اليسار الفرنسي والأدوار التبادلية التي يمكن أن يلعبونها فهم في النهاية لا يهتمون كثيرا بأن يكون الشعب مثقفا أو مدركا لفكرة الحرية.. كل شيء في فرنسا تحول لشعارات".

بوفوار: "أعاهدك صادقة لن تكون لي علاقة بسافو منذ اليوم.. بغض النظر إن كانت هي مستمرة بعدي أم لا.. فعندما يذهب ديغول إلى الجحيم لن تجد سافو من يدعمها".

كانت بوفوار صادقة، لكن قطع علاقتها بسافو لم يكن يعني لها أن سلوكها الشخصي سوف يتغير.. وهذا ما فهمه سارتر.. ولم يهتم به، لأن ما كان يرفضه أن تظهر سيمون كزعيمة لطائفة من النساء والفتيات اللائي يشجعن ديغول بغباء. لتمارس حريتها ما شاءت بعيدا عن هذا الديغول وقرفه.

في الواقع كانت علاقة سيمون بسافو صعبه الفهم.. وتظل من الأمور المعقدة.. صحيح إن سيمون أوجدت علاقتها مع عوالم سافو بناء على ما كانت تحاضر به في الجامعة، وعشقها للقطط.. وممزاحات سارتر في هذا الشأن في الساعات الحميمة. وكانت تعلم أن سارتر حتى لو كره القطط علانية فهو في قرارة نفسه يحبها جدا. فكثيرا ما حكى لها عن طفولته وكيف أنه كان يربي العشرات منها. لكن كراهيته الآن المعلنة للقطط هي مجرد شعار سياسي لمقاومة ديغول وإشعال الثورة الطلابية في أمل أن يتغير حاضر فرنسا.

كتبت سيمون بوفوار في كتابها "وداعا سارتر" الذي نعت فيها زوجها وعشيقها وهي تسلم عليه في عالم آخر مجهول لا تدري عنه.. كتبت ما تم نزعه من النسخ الفرنسية في طبعات لاحقة ولم يعد أحد يذكره كثيرا إلا المتابعين جدا:

"من الأمور التي ما زالت تشغلني كيف أنني دخلت عوالم سافو.. لم أكن أعرف أنني وقعت في خديعة صنعها الرأسمالي فيكتور الذي كان يدعي أنه يثقف الجيل الجديد باسم مجلته (تان تان).. ذلك المبتز الذي كان يستغل قدرات الموهوبين ويحولها إلى مال يصبه في بنوكه.. في حين ينام أغلب هؤلاء الشباب في بيوت آيلة للسقوط أو في الطرقات.. لم يكن ثمة فرق بينهم وبين الغجر المهاجرين.. المهم أن فيكتور نجح في خدعتي.. واستغل توتر العلاقة بيني وسارتر في تلك الفترة لينجح في مشروعه وكم كنت غبية.. وأنا اعتقد أنني سأوذي سارتر".

"... بحسب علمي لم يكن ديغول على دراية بنشأة سافو ولا كونها امتدادا لنزعة القطط وصرعتها.. وهي حديث مفتعل.. قد يكون هذا الرابط موجود.. وقد لا يكون.. غير أن الحقيقي والجوهري في الأمر أنني ساهمت بسوء في هذا العمل باسم الحرية أيضا.. كان الضحايا كثيرون وكنت أنا أولهم.. ولاحقا عرف ديغول.. ويقال أنه في البداية شعر بالغثيان ونعى نساء فرنسا وقال ما قال وإن الشعب الفرنسي يجب أن يخجل الآن كيف سيواجه البريطانيين أو غيرهم.. ويقول لهم فرنسا بلد الجنس السوي.. لكن لأنه رجل نفعي وبراغماتي ويفكره في فائدته أولا فقد اقتنع في النهاية وبناء على ألاعيب الناس الذين يتحكمون في السياسة من على البعد أمثال اليهودي فيكتور؛ فقد اقتنع تماما بأن دعم جمعية سافو أمر جيد.. وسرا عمل رجال الأمن الفرنسي على الترويج للسحاق.. وكان يجرون مئات الفتيات للجمعية التي توسعت لتصبح لها فروع في كل فرنسا.."

".. اعترف أنني كنت شاهدة على جزء كبير من هذه الوقائع قبل أن يكون ذلك الحوار العاصف بيني وسارتر بعد أن تعرض للإهانة بسببي وسمعتي (السيئة).. ولأنني كنت أحبه حقا لدرجة لا تضاهى حتى لو انشغلت بنزواتي أحيانا وكرهته فقد قررت أن انتصر لحبي له.. ولعله يسمعني الآن من نافذة في العالم الآخر.. وأنا أقول له: نعم كنت أحبك يا سارتر... ولهذا قدمت استقالتي من سافو.. وسأخبرك بأمر حجبته عنك لا بأس من قوله الآن إن كنت تسمعني.. وأنا واثقة أنك تسمع.. فقد استدعاني ديغول.. وتعامل معي بلطف.. وقال لي: نحن نثق فيك يا سيمون.. لكننا لا

نثق في سارتر.. يجب أن لا تتوقفي في منتصف الطريق.. وكان فيكتور يحاول إقناعي أيضا.. وهددوني بالقتل.. وبأشياء كثيرة قد تكون بالنسبة لي أبشع من القتل.. أن يصادروا كتبي وأن يمنعوني من الكتابة نهائيا بقطع يدي.. لكنني عارضت وبشدة.. وتعهدت لهم.. أنني لن أضر أحدا ومقابل ذلك عليهم أن يتوقفوا عن ضرري..."

"... كان يمتلكني شعور أن ما يجري في فرنسا مجرد خدعة كبيرة.. ليس ثمة شيء حقيقي تصنعه القطط أو تؤثر به في حياة الناس.. وربما كان شعوري هذا صادقا لأنه سرعان ما ذاب الجليد.. أكتب هذا ولست متأكدة هل انتهى الأمر أم لا؟ هل فرنسا بخير أم لا؟ هل كانت ثورة القطط في الستينات حقيقة أم لا.. إننا نعيش في عالم من الصعب على العاقل أن يفهم الطريقة التي يعمل بها! أين هي الحقيقة وأين الخيال؟!.. لا أدري.. فحالة من التوهان تتملكني.. كما تحسني بأنني لا أفهم مسار حياتي بالضبط.. أكاد أظن أنني أعيش كابوسا ضخما اسمه الحياة وأنا جزء منه شئت أم أبيت.. غدا سأموت وألحق بك يا عزيزي، حبيبي سارتر.. لنكتشف معا أننا كنا صادقين في حياتنا رغم كل شيء.. نعم كنا كذلك.. كانت لنا مبادئ وقيم حتى لو لم يعترف بها الآخرون أو يحترمونها أو يرونها مقدسة.. ما يكفي أننا كنا نراها مقدسة وخالدة..."

"... بإمكان رجل مثل ديغول أن يبكي على خسارة فرنسا لكنه كان كاذبا وكانت دموعه مصنوعة.. أما أنا فعندما أبكيك يا سارتر فأبكي خسارة فرنسا حقا.. فأنت القط الفرنسي الحقيقي.. ملك القطط"

-25-



القط أمامك وأنت لا تبصره

القط يراك جيدا.. ويعلم كم أنت فاتن

لكنه لا يرى شعرك المسترسل في الفجر

وعند الصخرة يموء

يموء فتتمايل الأشجار

وسرعان ما تنقشع العاصفة

ونغني بصوت رائع:

ليحيا ديغول

***

كانت تلك مقدمة الأغنية التي صاغها نيرون ليصبح بها ريلكه الفرنسي لفترة مؤقتة.. وهو في الواقع لم يقم بجديد على السائد من الأغاني التي جارت الموضة ومن حسن حظه أن نصيحة بيرو التي جاءت في شكل مزاح تحولت إلى فكرة رائعة غيرت مسار حياته في إطار حلمه كشاعر. وبعد شهور لم تبلغ العام عاد بيرو إلى العيادة فوجد لافتة قد علقت كتب عليها: "الشاعر مشغول".. وجاء مرة ثانية بعد أسبوع فوجد لافتة أخرى: "كانت هنا عيادة الشاعر ريلكه.."

ضحك بيرو كثيرا.. وعاد يحمل قطه المريض، كان الكلب قد تعافى تماما.. وهو يفكر هل يكون نيرون.. هو ريلكه الذي تتحدث عنه كل فرنسا تقريبا.. فقبل عدة أيام سمع سيده فيكتور يخبر أحد زملائه بالمجلة: "لقد عرف هذا الطبيب المعتوه كيف يكسب ديغول".

كان ديغول قد استقبل نيرون في مكتبه وشكره على القصيدة التي صارت أغنية غنتها فرقة "ملك القطط".. ورغم أن ديغول كان سعيدا كما بدا لنيرون إلا أنه اعتذر له عن حضور الحفل الذي ستقدم فيه الأغنية لأول مرة على مسرح مكشوف.. لأنها قدمت في البداية في الإذاعة وفي مسارح مغلقة.

كان نيرون سيكون سعيدا لو وافق ديغول لكنه خيب أمله. وما حدث أنه تلقى إشارة من أحد مستشاريه أن الوضع في الخارج غير مطمئن.. إذا كان ذات مرة قد صعد إلى المسرح وغنى مع الطلاب والشباب وعاشوا لحظات حماسية.. فقد انتهت تلك الفترة.. "لأن الوضع في الشارع وفي الجامعات خصوصا غير مطمئن، كما أنه لا حاجة للجنود الآن للحرب في الخارج. نحن محتاجون لهم في الداخل ولكن هل سيخدع الطلاب والشباب أنفسهم مرة ثانية؟!"، هكذا فكر المستشار، لكنه أخفى الجزئية الأخيرة عن ديغول.

كان ديغول وهو في غمره صرعة القطط.. يظن أن الأمور ستسير هكذا على ما يرام إلى الأبد.. ولم يكن يدري أن من أصعب الأشياء أن يتحكم سياسي كان أم عسكري أم شيطان في مزاج الشعوب.. وقد أخبره مستشاره الكاتب فرنسوا مورياك بكلمات مبسطة ليوصل إليه الحقيقة التي يجب أن يواجهها: "من أصعب الأمور السيطرة على الفرنسيين"

في اجتماع مجلس الوزراء، كان رجال الحكومة يتغامزون سرا عن أن الحفل الذي قدم قبل يومين انتهى بدماء سالت على أرض المسرح المكشوف.. وأن الطلاب كانوا قد حرّفوا نهاية

الأغنية فغنوا: "ليموت ديغول".. بدلا عن "ليحيا ديغول". وكان عدد منهم قد حملوا لافتات كتب عليها: "العاصفة سوف تنقشع".

كان لابد من مواجهة شارل ديغول بالأمر وتحفز رئيس جهاز الأمن ليقدم تقريرا مفصلا لوزير الداخلية، لكن الوزراء نصحوه بألا يتخذ خطوة هوجاء، يجب معالجة الأمور بحذر.. عاجلا أم آجلا سوف يعلم ديغول بالحقيقة.. وأنه لم يعد رجل فرنسا والبطل المحبوب.. واتفقوا على نصحه عبر مستشاره جورج بومبيدو الذي أصبح رئيس البلاد بعده، بالكلمات التالية: "في بعض الأحيان يكون الانسحاب مشرفا.. فأن تنسحب بطلا خير من أن تفقد الجميع وتصير ضحية لا أحد يأسى عليها".

في البداية ظن ديغول أن نصيحة بومبيدو هي نوع من المكايدات، وتوترت العلاقة بين الطرفين، لكن لم تمض سوى أسابيع حتى كان ديغول غير قادر على السيطرة على الوضع، فهو يسمع الهتافات أمام قصر الإليزيه ويشاهد من النافذة الطلاب وهم يحملون صورا لقطط ممزقة، وصور أخرى لديغول على هيئة قط مقطوع الرأس، وغيرها من أشكال الرفض والسخرية.. وهو ما جعله في ارتباك وحيرة "ما الذي يجري.. وما الذي جرى؟.. وكيف تبدلت الأمور بهذه العجالة؟!"

اجتمع بمستشاريه أندريه مالرو وفرنسوا مورياك للتفاكر حول ماذا يفعل!! أما بومبيدو فكان قد أبعد من القصر، ولم يكن ديغول يعلم بالطبع أن مالرو ومورياك متعاطفين أشد التعاطف مع ما يجري في الشارع.. رغم أنهما في بعض الأحيان يفكران أن خسارة ديغول قد تؤدي بهما إلى الجحيم.. فقد خسرا صورتهما كمثقفين في المجتمع الفرنسي.. لكنهما يفكران في ساعة أخرى أن مستقبل فرنسا هو الأهم.. وبعد أن انتهى كل شيء وغادر ديغول مستقيلا، وبعد سنوات قال لهما سارتر وهما يستحضران تلك الأيام السوداء:

"إن الحديث عن مستقبل فرنسا بات مجرد شعار عند الكل.. وإنتما وقعتما في هذا الخديعة.. فقد كان عليكما أن تفكرا في مستقبلكما أنتما فالخطر كان واضحا.. والنظام كان قد ترهل"

رد مالرو: "كان المشهد واضحا وكنت أقول ذلك لمورياك لكن أن ننسحب قبل نهاية المعركة فهذا يمثل خطر بالنسبة لنا أكبر من الخطر الذي يمكن أن نتعرض له ساعة نسلم أنفسنا كأسرى"

قاطه موريك: "لكي أكون صادقا في رواية التاريخ.. فديغول كان إنسانيا إلى أبعد الحدود في تلك اللحظات.."

لم يدعة سارتر يكمل، قاطعه: "أي إنسانية لديغول؟ هو الخوف الذي جعل يبدو كائنا آخرا".

حرك موريك رأسه علامة على الرفض، قال بإنفعال: "أبدا ليس هذا الجانب.. ما فعله ديغول أنه نصحنا أنا ومالرو.. واعتقد أن مالرو يتذكر ذلك جيدا... أليس كذلك؟.."

أجاب مالرو بتحريك رأسه أيضا دلالة على الموافقة.

واصل موررياك: "قال لنا عليكما أن تبحثا عن مستقبلكما ففرنسا لا تريدني بعد اليوم.. ربما أسبوع على الأكثر سوف أقدم استقالتي"

سارتر: "لكنكما ظللتما إلى آخر لحظة.. وتعرضتما للضرب من قبل الطلاب عند بوابة القصر"

مالرو: "حدث هذا فعلا.. كنا نعتقد أن ديغول يناور.. أو أنه يريد اختبار مصادقيتنا في التعامل معه"

سارتر مشيرا بأصبعه البنصر الأيمن وهو يرفعه اتجاه موررياك :"تذكرت شيئا.. أنت قلت يا موررياك أن ديغول قال لنا عليكما أن تبحثا عن مستقبلكما.."

موررياك: نعم قال ذلك بالضبط.. فهمت ماتريد أن تقوله أنه كان يفكر دائما في مستقبل ذاتي وليس مستقبل عام"

سارتر: "هذا ما أعنيه بالضبط.. دائما ظل أنانيا يبحث عن موقعه كبطل وهمي.. واستقالته هي التي حفظت له ماء وجهه"

رد عليه موررياك ضاحكا: "وأنت أيضا قلت لنا في البداية: كان عليكما أن تفكرا في مستقبلكما". وكرر حركة سارتر بأن رفع أصبعه البنصر الأيمن باتجاهه.

-26-

يكتب الدكتور ميري في "المجهول في البيت" إن نهاية الفرعون المصري رمسيس الثاني المولود سنة 1303 كانت بسبب ثورة كبرى، أبيدت فيها آلاف القط في البلاد، وذلك بعد رؤية منامية لرمسيس نفسه، الذي شاهد كيف أن أحد القطط البيضاء استولت على عرش مصر.

كان الفرعون أسمر اللون وكان قد بلغ به الطغيان ما بلغ لدرجة أنه أدعى الألوهية، ولم يجد ملايين المصريين بدا من اتباعه والسجود له خوفا من جبروته، لكن الله غيض رسولا من عنده استطاع أن يوقف رمسيس عند حده، فغرق الملك في نهاية الأمر في البحر، ومن ثم استخرجت جثته، وحفظت في الأهرامات ومن ثم في المتاحف إلى أن سافرت لأول مرة إلى فرنسا فيما بعد سنة 1981 بهدف دراستها علميا على يد موريس بوكاي.

تقول الاسطورة القديمة أنه على مدار التاريخ القديم عاشت القطط بعيدا عن البشر في الصحاري والوهاد البعيدة، وكانت تنشد حياتها بأمن وأمان وتمارس طقوسها الخاصة إلى أن أقام البشر علاقة معها ومن ثم غيرت القطط من خطتها فهي تعرف أن البشر لا أمان لهم ويجب أن تكون حذرة. وبالتالي يجب أن تستخدم أسلحتها التي لا يعرف عنها الإنسان شيئا. فتارة تكون سببا في أمراض وبائية معدية تقضي على الملايين وتارة تكون مصدر إلهام وسعادة وفرح للملايين أيضا. وقد حار الإنسان في سر القطط، وفي قدراتها التي لا تظهر مرة واحدة بل على دورات في التاريخ. فيما حافظت القطط على سرها الأعظم وكان لديها القدرة بوجه خاص على التسلل إلى عوالم غير الواقع المباشر، بمعنى أنها قادرة على أن تدخل في أحلام الناس وتسيطر عليها وتشكلها وفق رغبتها، وهذا ما فعلته مع الكثيرين من الملوك خاصة، كما حدث مع

رمسيس الثاني الذي كان يظن أنه يحلم، بينما الحقيقة أن القط الأبيض الذي أستولى على عرشه كان هو الذي زج بنفسه في منام الفرعون وأقلقه حتى يتخذ الفرعون خطوة لوقف جبروته ويفهم أنه مهما فعل سوف يأتي من بعده من يجلس على عرشه، وعليه ألا يظن أنه إله، وأن الذي يعقبه قد لا يكون إنسانا، إذا كان قد قضى على الذكور من بني البشر.

أما لماذ فعل القط الأبيض ذلك، فبحسب الأسطورة كما يوردها كتاب "المجهول" أو كما سطرها الدكتور ميري.. أن القطط البيضاء كانت على قناعة أن الفرعون ليس إلها فكيف يخدع البشر. فهي أقدم من الإنسان وشاهدة على بدايات تكوين الارض وربما المجرات البعيدة. ولهذا لم ترض أن ترى من يدعي الألوهية فيما هي تعرف الحقيقة وتعبد الله الواحد الأحد، ولم ترغب أن تسكت على ظلم البشر، وقتل أولادهم على يد رمسيس الثاني الذي ظن أن إبادة الذكور وختان الإناث منعا لهن من الإنجاب سوف يخلده. فكان القط الأبيض رسول في المنام لكي يتعلم الفرعون، لكنه لم ينتبه ولم يتعظ واستمر في غروره وتكبره، وكانت النتيجة غضبه على القطط.. وأصداره مرسوما بإعدامها مثلما أعدم الأطفال الذكور.. وهو يرعد ويزبد: "قط يحكم مصر ويبعدني عن عرشي".

تعلمون أن القطط كانت مقدسة لفترة في التاريخ الفرعوني وتتذكرون قصة الإله الذي رأسه رأس قط وجسده امرأة والذي كان معبودا إلى القرن السادس عشر قبل الميلاد أي حوالي 300 سنة قبل مولد رمسيس الثاني، وفي هذا الإطار يورد الدكتور ميري تحليلا مثيرا:

"لعل استيعاب تلك الأسطورة القديمة ولماذا كان موقف الفرعون حادا اتجاه القطط، بعد تلك الرؤية المنامية، يفسر بالتالي: أن القطط وإلى عهد قريب من ولاية رمسيس الثاني كانت تمثل إله الخصوبة، المسمى بـ (استيت) أو (باست) والذي رأسه قط ذكر وجسده امرأة.. وكأنما الإله "باست" هنا يشكل ثنائية الخلق.. حيث المرأة هنا ممثلة في جسدها والرجل ممثلا في القط في الرأس تحديدا، حيث العقل والتدبير والحكمة وأيضا الجشع والسطوة والعرش.. هذه الثنائية التي تلغي الرجل أو الذكر الآدمي وتستبدله بالقط في حين تبقى على المرأة "جسدا"، تحديدا تبقي رأس القط الأبيض - حيث أن القط الأسود لم يكن محبوبا لدى المصريين – يمكن أن تشرح بوضوح لماذا كان الفرعون منزعجا بعد تلك الرؤية، ولماذا سارع لإبادة القطط وقطع الرؤوس (ذكور البشر)".

وفي الأسطورة نفسها من خلال روايات أخرى لها نفهم أن رمسيس وبعد أن أعدم القطط.. عاش ليال من الأحلام المزعجة، وهو يراجع كيف أن القطط عادت من جديد لحكم الأرض.. وتنتهي القصة بأن الرواي وهو مجهول بالطبع، يقول: على الملوك بوجه خاص أن يتعظوا من قصة الفرعون وألا يهينوا القطط.

لكن هل أهان ديغول القطط؟ على العكس هو كرمها وأقام لها الحفاوة التي لم تجدها على مدار التاريخ الفرنسي منذ ذلك المرسوم الملكي الذي أوقف أبادتها وجاءت على اثره الثورة الفرنسية. تبدو الصورة الظاهرية هكذا.. وهنا حدث ما لم يفسر الالتباس الذي سيطر على دماغ الدكتور ميري في هذا الإطار وهو يشاهد بأم عينيه ثورة الطلاب وهم يحاصرون الإليزيه مثلما حوصر الباستيل ذات يوم في التاريخ. وإلى حد ما شكلت نهاية ديغول واستقالته صدمة لميري، فهو لم يكن يتوقع شيئا سريعا من هذا القبيل، على الأقل أن شارل سوف يحكم إلى أن يموت، لكن أن

يغادر بهذه البساطة يبدو الأمر غير مفهوم، "فالرجل صنع للقطط مجدا لم يصنعه لها أحد من قبل، بما في ذلك الفراعنة الذين اكتشفوها"، هذا ما فكر فيه ميري وهو مندهش مما يجري.

الحدث الذي لم يكن على علم به، والذي كان أندريه مالرو وفرنسوا مورياك قد سرداه لاحقا للدكتور ميري ليفهم ما جرى بالضبط، أن شارل وبعد أن رأى من النافذة حصار الطلاب ورغبتهم في إبادة القطط في فرنسا وإيقاف صرعة أخذت ذروتها في عشر سنوات تقريبا، أنه اجتمع بالكاتبين مالرو ومورياك وقال لهما: "آن الوقت للاستجابة لرغبة الشعب.. يجب أن تباد القطط".

ولم يكن منطقيا للكاتبين الذين تعاملا مع جملة المشهد كما لو أنه لعبة روائية، أن يقدم ديغول على هذه الخطوة.. لأن هذا يعنى ببساطة أن صرحا عظيما كان قد بناه سوف ينهار فجأة، وقال مورياك للرئيس: "سيدي أنهم مجرد متمرودن قلة تحركهم أفكار هذا الملعون سارتر.. وسرعان ما سوف تتم السيطرة عليهم من قبل الأمن".

عندما رأى ديغول أن الكاتبين لا يؤيدان خطوته، أتخذ قراره الشخصي فورا دون الرجوع إليهما وأصدر أوامره للضباط بتنفيذ أكبر مجزرة في التاريخ الفرنسي الحديث ضد القطط.. وهنا انطبقت الأسطورة أو النبوءة الفرعونية القديمة بكافة حذافيرها.. فقد أخطأ ديغول في اللحظة الأخيرة. وبهذا فهم الدكتور ميري أين يمكن الخطأ، وفكر لو أن شارل قرأ كتابه بدقة لانتبه.. لكن يبدو أن هذا لم يحدث.

قال ميري لمالرو: "كان بإمكان ديغول أن يترك الثورة تمضي إلى النهاية.. وكان سيكسب.. وكان قتلة القطط هم الذين سوف يذهبون إلى الجحيم.. لكن ديغول ساعد خصومه وقضى على نفسه بنفسه".

-27-

في بحث أثري بمصر سنة 1921 وجد مجموعة من العلماء الفرنسيين مقبرة قديمة للقطط تحتوي على 300 ألف مومياء، وهو رقم خرافي لكنه واقعي.. وقد نسبت تلك المقبرة إلى عهد رمسيس الثاني. الأمر الذي يجعلنا ننظر إلى الأسطورة الفرعونية كما لو أنها حقيقة.. إذ كيف مات ودفن هذا الرقم القياسي من القطط في مقبرة واحدة. وقد أثبتت البحوث العلمية على عينة من هذه القطط أنها ماتت بالتسمم، بافتراض أن مشروب أو غذاء معين قد قدم لها وسممت به لتلقى حتفها على الفور.

إلى حد بعيد ساهم كتاب الدكتور ميري دون أن يعلم هو نفسه، في خدمة رجال ديغول الذي نفذوا عمليات الإبادة الجماعية للقطط في فرنسا نهاية العقد السادس من القرن العشرين، فالقطط لم تقتل بالرصاص أو تنحر وإنما قتلت بالتسمم وكان الأمن يهاجم البيوت والمزارع الكبيرة والأزقة، حيث يأخذ تلك الكائنات المسكينة ويرمي بها في شاحنة كبيرة لها غطاء من أعلى، وفي الداخل تترك القطط جائعة إلى أن يقدم لها مرجل كبير من الحليب بصحبة اللحم المسموم. هذا المشهد أُخِذ بحذافيره – تقريبا – من كتاب "المجهول" مع فارق بسيط أن الفرعون نقل القطط الجائعة إلى قبورها في صناديق كبيرة جرتها الخيول.

وفي ليال معدودات فقدت فرنسا جل قططها، التي دفنت في مقابر جماعية وهي تصب صبا من الشاحنات على الحفر، في الخلاء البعيد عن محيط العاصمة باريس، وهي منتفخة الأجساد ومتورمة ميتة تثير الشفقة المتأخرة.

يروي بالتوس في مذكراته التي كتبها متناثرة وجمعتها بعد وفاته ابنته هارومي تلك الأيام الصعبة كما يسميها وكيف أنه كان يسير في الشوارع ليلا فيرى الشاحنات التي كانت تذهب بالقطط إلى مثواها الأخير. كانت مشاهد مرعبة أن التاريخ ينهار فجأة، ويقول بالتوس:
"الغريب أن سارتر وطلابه الثوريون وكل الذين وقفوا ضد تعديل الدستور الفرنسي في استفتاء كان سيطرحه ديغول، لم يتصوروا أن تكون النهاية فظيعة بهذا الشكل. كانوا يتوقعون أن يستجيب ديغول فقط لمطالبهم لكنهم لم يتوقعوا أن يصل به الحد إلى إبادة آلاف القطط".

وفي المذكرات يستشهد بالتوس بكلام لسارتر نفسه يذهب فيه إلى أن الثورة الطلابية اتخذت شعارها إبادة القطط لكن الأمر لم يكن بتلك الجدية المتناهية التي أخذها ديغول بحذافيرها.

ويمضي سارتر: "نعم كان الطلاب يحاربون القطط جهرا لكنهم في الواقع نزفوا الدموع وهم يودعون قططهم الأليفة التي صادرها رجال ديغول".

ويتذكر بالتوس أن القطط أحرقت في المسيرات والمظاهرات، غير أن من يقترب من المتظاهرين الطلاب يكتشف بسهولة أنهم كانوا يحرقون دمى للقطط ولم يقدموا على حرق القطط أنفسها. فقد كان القط في تلك الثورة التي نسبها الشيوعون لهم، يلعب رمزا سياسيا بغيضا يجب التخلص منه، ولم يكن بدرجة مطلقة مكروها.

هذه الرمزية كانت واضحة جدا لمن يتابع منشورات الحركة الطلابية، التي كانت تناضل لأهداف تتعلق بمحاور سياسية ضد ما اسمته بأخطاء شارل ديغول وتحويله فرنسا إلى أمبراطورية للشر والثراء الفاحش لطبقة معينة، واضطهاد فئة العمال، حيث ظهر رأسماليون جدد فجأة أمثال فيكتور وغيره، واتخذت الرأسمالية من تناقضات الواقع في تلك الفترة سلما للعب الذكي الذي مكنها من اكتناز الأموال وبشتى الأساليب، بحيث أصبح المجتمع الفرنسي يعاني الويلات في سبيل لقمة العيش والهناء، ولولا تلك الأغاني التي كانت تخدر الناس بالحماس الكذاب.. وكما لو أنهم ملوكا على شاكلة الملك القط، وأن المستقبل سيكون أفضل، لما صبر أحدهم. فقد مارس الفنانون والرسامون والمثقفون. ليس كلهم طبعا دورا قذرا في تمديد سطوة الابتذال والظلم الذي كان يعيشه عامة الشعب. وكان الكل يهرع وراء المال، وكانت مبادئ الثورة الفرنسية تموت.

في أحد المنشورات التي وزعت قبيل اختراق الشرطة الكبير لكلية السوربون لمنع انعقاد مهرجان طلابي فيما عرف بأحدث " 3 ماي" أو "3 مايو 1968"، كان مكتوبا بلهجة واضحة: "الخرافة القديمة تقول إن القط خرج من أنف الأسد في سفينة نوح.. وعلينا ألا ندع القط ينحشر في الأنف من جديد". كانت الرسالة التي فهمها الطلاب المشبعين بقيم سارتر الثورية أن عليهم أن يناضلوا ضد الأسد الكبير، وليس ضد الأنف. ضد ديغول، وليس ضد القط. وكان سارتر يجتمع بالعشرات منهم سرا ويخطب فيهم: "إن الألفة يجب أن تسود العالم.. على فرنسا أن تكون أبا روحيا ولكن ليس ذلك الوالد المتسلط.. وعليها أن تتخلص من الشعارات الجوفاء.. الملايين

هم منخدعون الآن وسوف يستيقظون ذات يوم ليكتشفوا حجم الخديعة، ولهذا علينا أن نبادر بمجئ الفجر قبل أوانه.. وستحتفل معنا القطط بالنصر".

كانت لغته في تلك الخطب حماسية لكنها شاعرية إلى حد بعيد، وكانت سيمون دي بوافور تساعده في كتابة الخطب وصياغة المنشورات، فجاءت لغتها مدغدغة للعواطف، بما فيها عواطف الكثيرين من جيل كاد ديغول أن يؤمن أنهم لن يقفوا ضده ذات يوم، ومنهم فرقة "ملك القطط" التي بدأت تغني في الجامعات وسط الحشود الطلابية، وتلهب مشاعرهم بقصائد غير تلك التي غنتها في الماضي.. قبل عدة سنوات..

من كان يكتب لهم تلك الأغاني؟!.. ليس نيرون طبعا، فقد كان جبانا.. وليس ذلك الطبيب البيطري المغمور الذي لا يعرف عنه أحد شيئا والذي كتب الأغنية التي باتت شعار الفرقة، فقد اختفى الرجل عن الساحة ولم يعد مذكورا..

كانت سيمون هي التي تكتب ولكن هذه الحقيقة لم تتكشف إلا بعد ما يقارب العقدين عندما أصدرت كتاب "وداعا سارتر" وكشفت فيه ذلك السر الغامض الذي كان رجال ديغول يحاولون حله ولم يصلوا إليه حيث عاجلتهم الأحداث، بل فاجأهم سيدهم ديغول نفسه بالانسحاب السريع وغير المتوقع بعد قرارته المتعجلة كإبادة القطط وضرب الطلاب وإيقاف الدراسة في الجامعات وفصل عمال المصانع عن العمل.

ولأن سيمون دي بوفوار قارئه جيدة للتاريخ، فقد جاءت الأغاني الأخيرة لفرقة "ملك القطط" أكثر قدرة على استيعاب التاريخ وتوظيفه بشكل ذكي بخلاف الأغاني الأولى التي كانت مجرد شعارات حماسية. ومن ضمن الأساطير التي وظفتها أسطورة تقول إنه عندما هاجم الفرس مصر رسموا على دروعهم قططا حتى لا يشهر الفراعنة سيوفهم عليهم، وأدى هذا لانتصار الفرس.

كان الثوريون يحيطون بالفرقة وهي تغني:

لعلهم كانوا محقين

عندما رسموا القطط على بنادقهم

فقد حرروا أراضيهم ومزارعهم

كان الأغنية تصور كيف أن البلدان التي كانت فرنسا تسيطر عليها انتصرت في النهاية ونالت استقلالها بفعل حيلة ساخرة ترويها الأغنية، فحين رأى جنود ديغول القطط خروا سجدا وقتلهم أهل الأرض. والأغنية تلخص كيف أن ديغول رضخ لما كان قد رفضه بداية، أن يمنح الاستقلال لأقاليم ما وراء البحار، غير أنه لم يجد بدا بعد الأزمات، من مواجهة الواقع وقرر منح المستعمرات استقلالها.

كانت مثل هذه الأغاني تغيظ ديغول كثيرا، وتشعره بالألم وتكشف له أخطائه الكبرى بحق فرنسا، وعندما كان يقضي آخر أيامه في بلدة " كولومبي لي دوزيجليز" الفرنسية قبل أن يغادر العالم في التاسع من نوفمبر 1970 على اثر نوبة قلبية، حرص على تسطير غيظه من مثل تلك

الأغاني في مذكراته التي نشرت لاحقا. وكان يردد يتساءل: "لو أنني أعرف من كتبها!".. وكان متأكدا أنه ليس سارتر بحسب إفادة مستشاريه مالروم ومورياك، اللذين كان يثق فيهما كثيرا دون أن يدرك ما بقلبيهما.

-28-

بعد وفاة بالتوس بعدة أشهر قررت ستسوكو العودة للعيش في طوكيو، وأول ما وطأت قدميها أرض المطار بعد غياب دام أكثر من عشرين سنة، اكتشفت كم تغير المكان، صحيح أن المطار بات أكثر اتساعا والبنايات العالية بدت واضحة من الطائرة، واليابانيون باتوا أكثر خفة، لكن ما لفت انتباهها بوجه خاص مجموعة من التماثيل في نافورة بالصالة الرئيسية للقادمين، كانت تلك التماثيل لقطط مفتوحة الأفواه يصب الماء منها في أحواض صغيرة إلى أسفل. إلى هنا لا يبدو الأمر مثيرا جدا، لكن المثير أن القطط كانت تضم أكفها إلى جسدها بعكس الاعتقاد الذي عاشت عليه في بلدها في زمن الطفولة والشباب وهو أن تماثيل القطط التي تبدو فيها رافعة أكفها تعتبر رمزا للفأل الطيب والحظ السعيد.

كانت تلك إشارة إلى أن المجتمع الياباني يتغير، وفكرت أنه يتغير لكنه لم يفقد قيمه تماما.. فهاهم يحافظون على حبهم للقطط وعلى تماثيلها مع اختلاف في طريقة نظرتهم للأشياء، فربما يكون جائزا أن رفع الأكف لم يعد علامة للفأل الحسن. وقد حاولت أن تفهم من الكثيرين ما الذي حدث بالضبط، سواء من الأقارب أو صديقات قديمات، ولم يكن ثمة من يعرف أو قادر على التفسير. وكان مستحيلا تفسير كيف يصنع المجتمع الياباني الجديد قيمه.

وما أشعرها بالسعد الشديد، رغم حزنها على فراق زوجها، أنها وبعد أيام من عودتها وفور انتشار خبر وصولها طوكيو أسرعت عشرات وسائل الإعلام لإجراء حوارات معها بوصفها زوجة بالتوس. كان سعيدة أنهم يعرفون بالتوس هنا. يعرفونه أكثر من الفرنسيين الذين تشك أنهم لم يحترمونه بالقدر الصادق ذات يوم. حتى لو أنهم أدخلوا لوحاته اللوفر. لكن سعدها لم يدم طويلا، فبعد أن رفضت إجراء أي مقابلة كنوع من التدلل وربما الانتظار إلى أن تنضج الأمور وتفرق إلى من ستدلي بكلامها، فقد امتلأت طوكيو بمئات المؤسسات الإعلامية والصحف والتلفزيونات بحيث يصعب تمييز الغث من السمين - بعد ذلك عادت لقبول دعوة لحضور معرض استعادي لبالتوس في متحف بريدجستون للفنون بحي نيهونباشي في قلب العاصمة، فكان ما أشعرها بالحزن مجددا.

اتصلت بهارومي في السويد لحضور هذه المناسبة السعيدة، ووصلت بصحبة مايك الذي وجدها فرصة لزيارة عائلته التي لم يرها منذ عامين. ودخل ثلاثتهم إحدى قاعات المتحف المخصصة للمعرض الاستعادي لبالتوس، لتكتشف الأرملة أن اللوحات المعروضة كانت مزيفة، كانت قادرة على معرفة رسومات زوجها بسهولة، وواجهت منظمي المعرض أمام الزوار والصحافة: "كتبتكم في الدعاية الإعلانية للمعرض أن اللوحات تمت استعارتها من لوفر باريس.. لكن الحقيقة غير ذلك!!"

رد عليها شاب طويل ونحيف يلبس نظارة طبية، بإنفعال: "عفوا سيدتي أعتقد أنه ممكن الحديث عن هذه الأمور لاحقا".

كان الشاب مرتبكا، وبسرعة أخذ ستسوكو من يدها إلى ركن قصي، وأخبرها: "الأمر بيزنس سيدتي.. لا تنزعجي.. وحصتك محفوظة".

لم تعرف ستسوكو ماذا تقول، فهي نادرا ما تصبح مصادمة وقاسية، وقررت أن تسكت واعتذرت للحضور أنها تشعر بألم مفاجئ في بطنها وعليها أن تغادر إلى المستشفى.

أما مايك وهارومي فقد بقيا بالمعرض، ومارس مايك جرأته في استعراض قدراته حيث بدا يشرح للحضور، علاقة بالتوس بالقطط وفنه وكيف أن هذه الكائنات شكلت حياته، وكان يشير إلى اللوحات لوحة لوحة ويصوّر ما شاء له خياله دون أدنى استناد للوقائع الصحيحة. في حين كادت هارومي أن تسقط من الضحك المكتوم، وأنهى مايك الجولة بالحديث لوسائل الإعلام وظهرت صوره في اليوم التالي بالصحف، وكان سعيدا جدا. وعلقت ستسوكو على ما جرى من مايك بقولها لهارومي: "دعيه يفعل ما طاب له إن كنتما ستسفيدان شيئا.. أما أنا فلا"، وأضافت: "لو أنكما عشتما تلك الفترة التي عاني فيها بالتوس ما عاني وهو يعلّم الفرنسيين حب القطط.. لعرفتما كيف أن جهوده سرقت في النهاية.. السياسيون والفنانون والمغنون لا أحد كسب فرنكا إلا وكان بالتوس سببا فيه بشكل أو بآخر.. ولو أن كل واحد منهم دفع نسبة ضئيلة مما كسب لصالح بالتوس لكنّا أغنى أسرة على سطح الأرض".

فهمت هارومي مثلما فهم مايك إنها إشارة لهما كي يسترزقا من فن بالتوس، طالما أن المئات فعلوا ذلك دون حق.. والأقارب أولى من غيرهم.

بعد أقل من أسبوع كانت أمام مايك دعوة لإلقاء محاضرة في شركة تويوتا بوصف أن والده كان أحد عمالها الذين صنعوا نجاحها، وكان عليه أن يحاضر عن "فن بالتوس" بأي طريقة تقنع المصممين والعمال وزمرة من في الشركة، أنه يمكن الاستفادة من "الثورة البالتوسية" في صناعة السيارات. كان تلك الإشارات قد وردت من مدير العلاقات العامة بالشركة الذي كان شغوفا لأن يسمع الجميع من مايك.. وقال له: "الجميع يتذكر والداك لقد كان رجلا رائعا.. وأنت أروع بكثير".

لم تكن مثل هذه الإطراءات لتؤثر في مايك، الذي استطاع وبعض سنوات في أوروبا أن يصل لقناعة أن العالم كله يلهث وراء ضباب اسمه المال، وعليه أن يلهث معه. في الماضي كان جبانا يخاف من القطط، وكان صادقا إلى أبعد الحدود وكان مهذبا، وكان يخاف. لكن ذلك الأمس قد مضى إلى الأبد وعليه أن ينتصر لنفسه أولا ولوالده "العبقري" الذي راح ضحية نظام تويوتا القهري وسجونها غير المعلنة للمبدعين باسم اليابان الحديثة والنظام وقيمة العمل واحترام بوذا الذي لو عرف ما يحدث الآن باسمه لالتزم الصمت ولمات ملكا يخلف والده، بدلا من أن يتسكع مشردا وفقيرا وفي النهاية يموت فيلسوفا معدما.

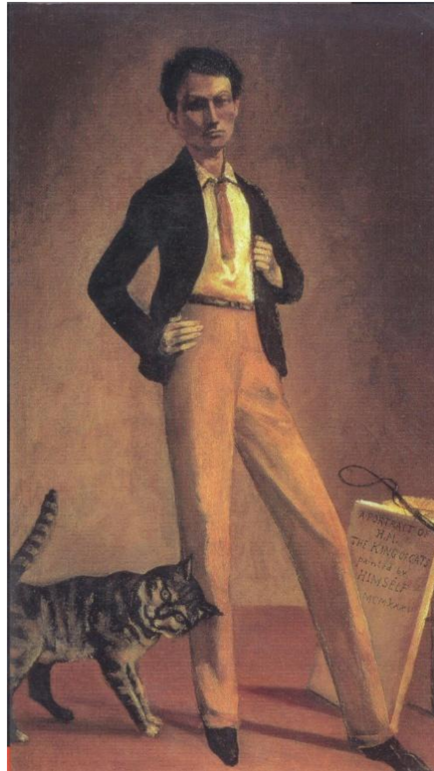
جلست هارومي في الصف الأول، وبجوارها ستسوكو التي حضرت بعد إصرار شديد من مايك، ووقف مايك بقامته القصيرة على منصة بمقدمة القاعة الكبيرة في الشركة، وكان الصف الأول قد احتشد بكبار الموظفين الذين صفقوا طويلا قبل أن يبدأ مايك في الحديث:

"سيداتي .. سادتي.. شكرا لكم.. باسم تويوتا التي أفنى والدى زهرة حياته فيها أحييكم.. وباسم اليابان التي نهضت من أجل الإنسان.. وباسم بالتوس الذي علمنا كيف نحب القطط .. واحيي أسرة بالتوس التي هي هنا معنا .. زوجته وابنته"

وبعد أن صفق الحضور التفت مايك إلى الوراء مشيرا إلى الشاشة الكبيرة التي كانت تعرض صورا من الكمبيوتر المحمول عبر جهاز البروجكتور. وضغط على الماوس ليريهم صورة نادرة لبالتوس في آخر أيامه وبجواره عصاه وقطه.



ومن ثم ضغط مرة أخرى على الماوس وعرض لوحة بالتوس المشهورة التي رسمها في 1935"ملك القطط" Le Roi des Chats والتي شكلت صرعة القطط الحديثة كما أوضح مايك:



تكلم مايك: " كان من الواضح أن بالتوس يصور نفسه إلى جوار قطه.. كان شأنا شخصيا إلى حد بعيد.. لكن هذا الشأن الشخصي تحول إلى مسألة وجودية، إلى هوس شغل فرنسا والعالم.. هكذا هم العظماء يعرفون كيف يصنعون التاريخ. لقد صنع بالتوس تاريخا لنفسه وللقطط.. الواقع أن تاريخ القطط كان موجودا لكن قبل بالتوس لم يكن ثمة أحد فكر فيه بجدية. بودلير، كتب قصيدته المشهورة. لكن بالتوس كان مصوّرا اعتمد على العين وهنا تفوق على الشعراء والذين سبقوه".

كان مايك يتحدث وهو يستعيد صورة القطط التي أعدمت هنا في هذا المكان، بحجة أنها تقلق نواميس العمل في الشركة. ويقول لنفسه سرا: "الذين حرموها حق الحياة.. يريدونها اليوم أن تصبح رمزا لاستيحاء سياراتهم التي ستغري البسطاء من الناس". لكنه لم يكترث لهواجسه هذه، فقد كان يفكر في هدفه، وهو يستعيد حواراته مع بالتوس حول الجنس عند القطط، وكيف أن الرسام وظّف ثقافته العميقة في هذا الموضوع في لوحاته التي وصفت بالإباحية وحرمها الكثيرون من دخول منازلهم. وإذا كان بالتوس قد عرف بلوحاته الأكثر شهرة وحشمة. إلا أن العشرات من لوحاته لا يمكن عرضها في أماكن عامة. كان مايك يفكر في ذلك ويتحاشى أن يذكر هذا بالشكل الواضح، لأنه سوف يثير امتعاض البعض، فاليابان التي تظن أنها منفتحة ما زالت بلدا محافظا إلى أبعد الحدود وما زال بوذا يسيطر على قيمهم بأن يدسوا عوراتهم.

عرض لوحة ثالثة، دون أن يسمي اسمها:



علق: "هنا يتحكم القط في العالم يهيمن عليه، أما الأنثى فتجلس بعيدا في الانتظار.. بإمكاني أن أفسر المشهد على أنه الصورة المصطنعة للقط على أنه الذكر لكنه في الحقيقة كائن أنثوي إلى أبعد الحدود"

استعرض مايك جزءا من تاريخ القط منطلقا من اللوحة: "هذا الفراغ الذي تشغله اللوحة هو البحر، بالأحرى هو سفينة. كان بالتوس مثقفا كبيرا.. وكان يرسم على دراية وثقافة عالية. وقد قرأ تاريخ القط والبحر. ففي القرون الوسطى استخدم القراصنة القطط على سفنهم وصارت جزءا من أفرادها، حيث استعانوا بها في إبادة القوارض التي تعيش في السفن. ألا تلاحظون أن القط هنا يشبه قبطانا. تأملوه جيدا.. أترون الأسماك على هيئة قوس قزح"

واصل بعد أن صفق البعض: "كان الأمر بسيطا في البداية.. قطط ستقضي على القوارض والفئران التي تأكل خشب السفن.. غير أن المسألة تعقدت.. وهذا هو شأن الإنسان في علاقته مع الأشياء.. فالبحارة سرعان ما نسوا المهمة الأولى للقطط واعتقدوا أنها حسن طالع لسفنهم حيث بإمكانها أن توقف العواصف الهوجاء بوجودها معهم ويدر البحر الصيد الوفير أو المال الكثير للقراصنة".

يعلم اليابانيون جدا أن القط يحمي طاقم السفينة من الأشباح وأن له قدرات كالسحر فهي تتنبأ بحدوث العواصف، ولم يكن مايك مضطرا لقول ذلك، لأن الجميع هنا تقريبا يعرفونه.. ولهذا اكتفى بالإشارة إليه دون تفصيل. وركز على التفاصيل التي قد لا يعرفها الحضور.

قال: "في الشرق الأوسط يعتقدون أن النبي نوح ساعة صنع السفينة حتى ينقذ أنصاره من الطوفان وحشد فيها كافة الحيوانات، لم يكن القط جزءا من عالم الحيوان.. وكان الفأر موجودا.. وقد عمل الفأر على قرض حبال السفينة، وهو ما يعني التهديد بالموت للجميع.. لكن الله وعد نوح بأنه سينقذه ومن معه من الغرق.. وهنا حدثت المعجزة الإلهية، حيث عطس الأسد فخرج من أنفه القط، ليقوم بملاحقة الفأر وتخويفه وينقذ أهل السفينة.. وبدأت العداوة بينه وبين الفأر كالتي تعودتم على رؤيتها في أفلام (توم أند جيري).. وتقول الأسطورة أيضا أن القط خالف أمر نوح بألا يكون هناك جماع بين الحيوانات في السفينة، حتى لا يحدث تكاثر. لأن حمولة السفينة محدودة ولا أحد غير الله يعلم متى يتوقف الطوفان وترسو السفينة.. فأن يزيد وزن السفينة أمر غير محمود العواقب.. القط عصى تعليمات نوح، وقام بمجامعة امرأته.. وكان الفأر هو الذي نقل الخبر إلى نوح.. ومن يومها والقطط تتجامع بشكل مفضوح ولا تستحي من أحد.. ولأن البشر نقلوا كثيرا من خواص القطط إلا أن المشهد الأخير لا يزالون حذرين نحوه، لكن بالتوس استطاع أن ينقله في لوحاته"

أشار مايك: "رسم بالتوس قوس قزح وإن كان من الأسماك وهو في أساطير الشرق الأوسط العلامة التي أعطاها الله لنوح لكي يفهم أن المطر قد توقف وأن موعد النجاة إلى البر قد حان.. كان بالتوس ملما بأساطير وتاريخ الشعوب في هذه النقطة وغيرها".

يتكلم مايك في صلب موضوع المحاضرة: "القطط هي كالأنثى.. صوتها ناعم.. هي ملوك خيرة.. على هيئة أمبراطورة اليابان.. إنهن لا يزئرن كالأسود أو كالرجال، هن يكتفين بالمواء فقط.. ويعبرن عن السعادة باهتزاز العظام.. أنظروا أيضا إلى أجسادهن كم هي مشغولة بالمنحنيات على عكس الرجل، الذي يقوم جسده على الخطوط المستقيمة"

من هنا بدأ مايك يوضح أفكاره بأن صناعة السيارات تحتاج إلى التخلص من الخطوط المستقيمة، ومن الأصوات الضخمة ومن الارتجاج العالي، لتصبح قططا حقيقية. وهو ما حدث فعلا بعد عام تقريبا في تقليعات السيارات الجديدة التي أنتجتها التويوتا وجارتها عشرات الشركات في العالم، حيث بدأ الشكل الانسيابي يسيطر على السيارات، وأصبحت أصواتها هادئة ورقيقة بحيث لا يكاد من يجلس بالداخل يسمع صوت المحرك. باتت أكثر نعومة وإثارة وتطبعت بالأنوثة الفائقة حتى في الألوان.

انتهت المحاضرة، وبعد عشر دقائق كان مايك في مكتب مدير التويوتا يوقع على عقده كاستشاري للشركة وهو يشعر بالزهو أنه انتصر لتاريخ والده، وحقق حلمه. وإذا كان ثمة فضل فهو ينسب لبالتوس ولهارومي تحديدا التي أحبته بلا قيود ووثقت في عقله.. وعرفت كيف تكون تلك القطة التي تثير إلهامه، منذ أن تعرف عليها قبل أكثر من خمس سنوات في باريس، وهي تعرض مجوهراتها هنا، كان لقاءً شائكا وغريبا بين أقصى الشرق والغرب توج بالزواج. تماما كلقاء بالتوس مع ستسوكو، حيث كانت القطة قد جاءت من الشرق. وتنفس مايك الصعداء، وهو يسترجع نضاله منذ أن تخرج من الجامعة في باريس حيث درس العمارة. ولم يكن يعرف أين سيكون موقعه في العالم، وهاهو يكتشف في هذه اللحظة، أنه سيصمم عمارة السيارات.

قبل أن يغادر مكتب المدير، فتح الكمبيوتر المحمول، وأوقف الشاشة عند لوحة لبالتوس لم يعرضها أمام الحضور في المحاضرة، قائلا: "اليابانيون شعب طيب ومحترمون ومحافظون.. لكن لا بأس أن ترى هذه"

نظر المدير بتأمل وشغف: وهو يسأل: "أهذه لبالتوس؟"

رد مايك: "نعم ولديه العشرات مثلها.. إنه رائع"

وقف المدير والمزيد من الشغف ينتابه بشكل واضح، وقال لمايك: "هذا ما تبحث عنه صناعة السيارات بالضبط".

أغلق مايك الحاسوب، في حين كانت مشهد اللوحة يسيطر على ذهن العجوز الياباني، وهو يستعيد الأيام التي كان فيها شابا عنفوانيا وكيف أصدر أوامره بإعدام القطط في المصنع بدلا من أي قرار حكيم آخر كان من الممكن أن يتخذه.

وسارع للحاق بمايك، يقول بخجل: "هل لك أن تنسخ لي نسخة من هذه اللوحة"

أجاب مايك بتحريك رأسه، وبسرعة فتح الجهاز، أوصله بالطابعة، ووضع النسخة أمام مكتب المدير، الذي نسي أن يسأله عن اسم اللوحة.



لكن مايك أخبره وهو يسرع للحاق بهارومي ووالدتها المنتظرتين بالخارج: "إنها لوحة (عارية مع القط) وقد رسمها بالتوس في عامين منذ 1948 إلى 1950.. أين كنت وقتها؟"

قال ذلك مازحا، وترك الباب يضرب وراءه بصوت عال، لكن مدير التويوتا لم يكترث.

-29-

إذا كان بالتوس أعطى للقط اللمحة الإباحية، وحولها إلى رمز هائل للأنوثة الذي أساء البعض استخدامه على شاكلة "جمعية سافو"، حيث يعتقد باحثون أن لوحات بالتوس كلوحة "عارية مع القط" – السابقة – عملت على نشر الشذوذ الجنسي والسحاق بوجه خاص في فرنسا ومن ثم في دول أخرى، كاليابان. إلا أن صرعة القطط التي ظن العالم أنها قد انتهت بموت ديغول، ظلت تسيطر وتنتشر، وإن كان ذلك الأمر غير مدروس أو ملاحظ بالشكل الكافي، وظهرت القطط في أفلام الأطفال وفي السينما وفي المجلات وفي كل مكان تقريبا بدعم من تلك الثورة الفرنسية التي لم تضـء كثيرا في الإعلام.

بإعتبار أن مصر هي أم استئناس القطط، فقد قررت مصورة بريطانية كانت تعيش مع والديها في أمريكا ومن ثم في كينيا أن تزور القاهرة مطلع هذا القرن لتخرج كتابا بعنوان: "قطط القاهرة" في 2001. المصورة الشابة اسمها لورين شيتوك. وقد عرضت في كتابها بصور جميلة لهررة تعيش في أماكن تاريخية بالقاهرة كخان الخليلي، وغيرها من أحياء المدينة. كما يعرض الكتاب لتاريخ المصريين القدماء وعلاقتهم بالقطط وكذلك احترام الإسلام للهررة والأمثال التى وردت بشأن القطط في هذا الشأن. وصدر الكتاب بتقديم المستعربة الألمانية "آن ماري شميل"، والتي كتبت: "استطاعت هذه المصورة أن تثبت أن تلك الكائنات اللطيفة استمرت لأكثر من ستة آلاف عام كائنا يتمتع بالقداسة أو ما دونها". ويحتوي الكتاب أيضا على نصوص فرعونية وغربية مترجمة في شأن القط ومقتطفات من رواية "خمارة القط الأسود" لنجيب محفوظ.

في الثلاثينات من القرن الماضي عندما زار المستشرق الإيطالي "أي دبليولين" القاهرة، أبدى دهشة للتجمع الهائل للقطط في حديقة دار القضاء العالي بالمدينة، حيث يأتي الناس القاهريون بسلال عامرة بالطعام من أجل القطط. وزادت دهشته عندما عرف أن هذه الكرم يعود إلى تعليمات صادرة منذ القرن الثالث عشر الميلادي، تحديدا من السلطان المملوكي الظاهر بيبرس، والذي أمر بوقف تلك الحديقة للقطط، لم يكتف بذلك بل خصص مؤسسة خيرية لإتاحة ما تحتاجه القطط وتحبه. ورغم أن المكان تغيرت معالمه اليوم وبيع عدة مرات إلا أن الأمر السلطاني حافظ على وجوده طوال سبعة قرون.

وفي اليابان ساهم جيل جديد على رأسهم مايك وساندته هارومي في نشر ثقافة أكثر حداثة بشأن رعاية القطط، حيث انتشر ما يسمى بـ "Cat Cafes" وهي حدائق يرتادها اليابانيون للتخلص من الوحدة والضغط النفسي، فالجميع – تقريبا – يعتقدون أن العلاقة مع القطط تطيل العمر وتبقي الشباب. وفي تلك المقاهي تقدم كافة الخدمات بما لا يمكن تصوره، من البقاء مع القطط لفترة مؤقتة إلى استئجارها. وفي طوكيو وحدها يوجد 1500 شركة لتأجير الحيوانات الأليفة وعلى رأسها القطط.

ثقافة الاهتمام العام بالقطط بدأت في الشرق الأوسط، في مدن كالقاهرة ودمشق واسطنبول والقيروان ومن ثم غزت العالم، وظل القط يحتفظ بهيبته الفرعوينة حيث كان يشار للإله رع بالقط الأعلى وهو مجسد في شكل قط ضخم ممثلا الخير الذي لا يقهره الظلام. وفي "كتاب الموتى" الفرعوني، وهو كتاب قديم لا يعرف مؤلفه، يعود إلى الألفية الثانية قبل الميلاد، كان القط يتساوى مع الشمس مكانة، وكانت ثمة أساطير لا حصر لها حول القطط النوبية الذهبية التي أنارت بنور الشمس، وحول قط النور وثعبان الظلام، ولم يكن المصريون يأكلون القطط كما حدث لاحقا في بلدان كالصين وسويسرا عند الفلاحين، وفي أوروبا في فترات متفاوتة، بل على العكس من يقتل قطا يعدم في العهد الفرعوني ولاحقا صار يدفع فدية كما في عصر الدول العثمانية حيث كانت كفارة قتل القط في تركيا بناء مسجد. والطقوس نفسها نجدها في بلدان عديدة، ففي بنغلاديش يعوض القط بخمسة كيلوجرامات من أغلى السلع إذا تعرض من قبل أحدهم لأذى، وعلى المتهم أن يشتري حبوبا حتى يغطي ذيله تماما يحملها المتضرر وصاحب القط كتعويض.

كان قدماء المصريون يخصصون أماكن لدفن القطط ويضعون إلى جوارها بعض الأشياء التي تتسلى بها في العالم الآخر، ووجدت في الآثار آنية مملوءة باللبن داخل مقابر القطط التي دفنت في أوضاع مختلفة، فبعضها كان جالسا كأنها ملكة مع تزيينها بقرط ذهبي. وموت قطة كان يسبب حزنا عظيما لصاحبها، وإذا كانت ثروته تسمح فإنه يحنطها ثم يلفها بكتان معطر بزيت شجر الأرز، بالإضافة لوجود مقبرة ضخمة للقطط في "باباسيتس" حيث كانوا يقيمون الاحتفالات الجنائزية المقدسة الجماعية، ولإظهار حزنهم البالغ كانوا يحلقون حواجبهم حدادا خلال الاحتفال. وكان محرما أكل القطط حتى في أيام المجاعات.

وقد حمل الإسلام تلك الصورة الفرعونية لمحبة القطط فكان أن دخلت امرأة النار لأنها حرمت هرة من الطعام، واعتبرها الإسلام أطهر المخلوقات وأنظفها لكن هذا لم يمنع من وجود بعض الأعراب إلى اليوم يتشاءمون منها لأنهم ببساطة لا يمتلكون مخازن للحبوب، وبالتالي لم يكن في حاجة نفعية مباشرة للقطط، فاعتقد بعضهم أن الغول يتجسد في صورة قط يرتعب منه الأبل. ومقابل ذلك في التراث العربي شعرا، وغيره، قصص كثيرة عن تضحيات القط في سبيل صاحبه أو أنه يجلب الشفاء أو أن أجزاء من جسمه تشفي أمراضا معينة، وتستخدم في وصفات السحر وأدوية، مثل أن تبخير مخ قط بري يسرع الإجهاض وإذا حملت بعض أسنان القطط، لن يتمكن عدو من هزيمتك.

المتصوفة وأهل العرفان يحترمون القطط جدا ويحبون ارتيادها للمساجد بخلاف الكلاب المبغوضة، ويرون أن سبب وجود خطوط بين عيون القط يرجع إلى علامات أصابع النبي الكريمة عندما ربت على قط. ويروى أن أحد أهل العرفان وهو الإمام الشبلي الذي عاش في القرن العاشر، أنه وبعد وفاته زار أحدهم في المنام وروى له كيف أن الله عز وجل أظهر رحمته عليه، حين سؤاله عن أعماله التي يستحق عليها أن تغفر له ذنوبه، كالأعمال الفاضلة، والصلوات والنوافل، والسعي في سبيل العلم، والصوم، والصدقة وغيرها فقال: "لكن أيا من تلك الأعمال لم تغفر لي ذنوبا، وعندما سألت عن السبب، قيل لي لأنني في ليلة شتاء ممطرة ببغداد لمحت قطة صغيرة تحاول الاحتماء بجدار، فالتقطتها ووضعتها تحت معطفي المصنوع من الفراء، ولهذا غفر الله كل ذنوبي".

-30-

ذات يوم قرر بالتوس وهو يدخل عيادة نيرون لعلاج قطه المريض أن الرجل قاسٍ، وكان تقديره صحيحا، وإذا كان نيرون قد اختفى عن تاريخ فرنسا ولم يعد أحد يذكره، إلا أنه يمكن لنا أن نتذكره بالطريقة البشعة التي أنهى بها حياة الرسام "بيرو بيرو"، فأثناء ثورة الطلاب كان قد شعر نيرون بأن مشروعه كشاعر يتلاشى، وقرر أن بيرو الذي خدعه وقال له إنه ممثل في المسرح، رجل مداهن، ولم يكن صعبا أن يبحث عنه ويجده، إلى أن دخل مبنى مجلة "تان تان" حيث كان فيكتور هائجا يزبد جراء الانهيارات المتوالية التي كانت قد ألمت به في الأيام الأخيرة لديغول، وشعوره بأن عليه أن يسيطر على باقي ثروته وبأي ثمن.

لم يسأل نيرون أين هو بيرو فقد عرفه للتو وتقدم نحوه بجسده الضخم، موجها إليه طلقة في بطنه الكبيرة الممتدة، ومن ثم في رأسه ليسقط صريعا. دون أن يكون أحد قادر على التدخل، وبعد أقل من ساعة كان نيرون يهيم في الشوارع وهو يصرخ مع الطلاب الثوريين، دون أن يكون مدركا لما يقوم به. ولم تكن الشرطة متفرغة لتقبض عليه فلديها ما هو أهم في تلك الظروف الحرجة، رغم أن أحد زملاء بيرو أبلغ الشرطة بهوية القاتل، فقد كان نيرون قد أصبح علما.

فيما بعد قبض على نيرون ولكن ليس بتهمة قتل بيرو، وإنما بتهمة أخرى هي التحريض ضد النظام، وزج به مع مئات الطلاب الاشتراكيين في السجن، وقد وجد فيه الطلاب داخل سجون ديغول نوعا من التسلية حيث كان يقف ينشد لهم أشعاره الحماسية عن القطط، وأيضا كان لا يدري ما الذي يقوم به بالضبط. ولم يفرج عنه إلا بعد أن غادر ديغول السلطة، وبعدها لا أحد يعرف عن مصيره شيئا. وعندما خرج الطلاب المعتقلون من السجون كان البعض يتذكره من حين لآخر، وسرعان ما نسوه. لأن هموم الجيل الجديد في فرنسا كانت تتغير بشكل سريع. وكانوا يتذكرونه بقصيدته التي كتبها في السجن، دون قلم طبعا، كتبها في دماغه وحفظها وأنشدها لهم وقام طلاب بتجريب موهبتهم في اللحن عليها، وعنوانها: "القطط تأكل أولادها".

كان نيرون في هوجة جنونه قد استعار فكرة أن بعض القطط عندما تشعر بالخوف على مصير أجنتها المولودة للتو تقوم بالتهامها بدلا من تركها تعاني في الحياة. لكنه قلب الاستعارة وعكسها على ما كان يجري في باريس من غضب ضد ديغول. وكيف أن الذين أحبوا القطط أمثاله – أي نيرون - أصبحوا ضحية لها. لكن القطط تأكل أبنائها شفقة، أما ما حدث في فرنسا فقد كان التهام الأولاد أمرا غير قابل للتفسير لدى عقل نيرون المشوش جدا.

يروي سارتر كيف كانت السجون قد تحولت إلى أمكنة للثقافة الحقيقة عما يجري في الخارج، فقد عكس أناس أمثال نيرون بجنونه، الطبيعة الحقيقة التي كانت تحرك المجتمع الفرنسي. لكن سارتر لم يرو شيئا عن نيرون، وإنما عن أناس آخرين مثقفون وفنانون ومغنون وممثلين دخلوا السجون في زمرة ثورة الطلاب وحولوا هذا العالم القائم بين جدر إلى جامعة تخرج منها الطلاب بحق. ومن ضمن هؤلاء الذين اعتقلوا المرأة التي باتت فيما بعد الأكثر شهرة في تاريخ فرنسا في دفاعها عن حقوق الحيوان، بريجت باردو.

روى سارتر ذلك في كتابه "حياة في المعنى.. سجون ديغول"، وكتب عن باردو: "لقبت بقطة باريس.. وفقمة الإغراء.. وجسدت قمة صرعة الستينات وهوس ديغول بشكلها الذي يشبه القط. لكنها خالفت توقعات الكثيرين وتحولت إلى رائدة الإصلاح الحقيقي بإحترام مبجل وصادق لجنس القطط.. فبعد أن كانت تصرخ مع طلاب باريس: الموت للقطط.. عادت فيما بعد لتكون في السبعينات مدافعة عن حقوق الحيوان.. وتعترف لي أنها لم تكن تدري في الواقع ما تفعله.. كانت تستغل صورتها كامرأة ترمز للإغراء والفتنة في التضامن مع الهم الفرنسي.. وكانت تشعر أن ديغول في طريقه للانهيار وعليها أن تقف بجوار من أحبوها من الجمهور والجيل الجديد.. ولهذا شاركت في المظاهرات ودخلت السجن، وبين القضبان تلقت الدروس الحقيقية التي لم تكن تعرف عنها شيئا من قبل.. وعرفت كيف على البشر أن يكون آدميين بدرجة أفضل مما يطرح مشروع ديغول"

في السجن كانت تتذكر ما قاله ديغول على الملأ بشأنها وهو يروج لثورته القططية، ساعة افتتح فيلمها (تحيا ماريا) في ربيع 1965.. "إنك قطة فرنسا الحقيقة.. إنك مدللة ووحدك من يشعرني برغبة كامنة تجعلني ارفع برج أيفل على أكتافي". وكانت تعرف أنه معجب بها، ولم يقدر على أن يقترب منها، لأن زوجها المخرج روجيه فاديم كان أفضل حرس لها، فقد كان يرى فيها القطة التي توفر إغراء الفراش والصوت والنعاس وكل شيء يشعر بالدفء.

كان سارتر جرئيا وتحدى سيمون دي بوفوار عندما كتب عن باردو في موقع آخر تحديدا في مقال مقتضب بمجلة "الفلسفة الجامعية".. كتب دون أن يسمي اسم باردو، لكن بوفوار فهمت..

قال عنها:" إن الوجود مع ناعمة مثل هذه يضع السماء بوار نزواتنا والشهوة المنفلتة".

أما بوفوار فعلقت على المقال في المجلة نفسها وذكرت اسم باردو بصراحة قائلة: "هي مؤدية وأنا صانعة فلسفة . والفرق كبير بين هذا وذاك!!".

وبعيدا عن أحاديث السجون، تظل باردو أكبر مثال يلخص ما حدث في الستينات الفرنسية بالضبط. تعكس تماما كيف تجسدت رغبة القطط وثورتها "البالتوسية". وفي باريس حيث وصلت هارومي من طوكيو في 17مارس 2005 بصحبة مخرج ياباني شاب لتصور فيلم عن والدها، كان من ضمن الذين اقترح المخرج لقاءهم بريجت باردو، بناء على اقتراح مايك الذي كان ذكيا ولمّاحا لفهم تاريخ فرنسا وبدقة وفي ظرف وجيز.

-31-



كانت لوحة المسيح وهو يحمل قطا مثيرة للانتباه للمخرج الياباني أكيهيتو أزوهارا وهو يطل إلى الفراغ الداخلي في الصالة الرئيسية للاستقبال بالفيلا التي تقطن بها بريجت باردو في أطراف باريس، واستقبل أزوهارا وهارومي بترحاب من الممثلة التي بدت عجوزة، ولم تعد تلك القطة فائقة الحيوية التي شغلت فرنسا لعقدين من الزمان على الأقل. ولم يفكر المخرج كثيرا في الأفلام القديمة التي شاهدها لها، وهي تثير غرائز الشباب اليابانيين، لكنه انشغل بمعاينة اللوحات المعلقة في الصالة والتي تحتفي بالحيوانات والقطط بوجه خاص.

شرحت باردو أن هذه اللوحات هي حصيلة انتباه متأخر، ففي الستينات كانت الأمور تجري دون وعي كبير منها، وحكت كيف أن لقاء لها مع بالتوس في منتصف السبعينات غير الكثير من أفكارها وجعلها تأخذ موضوع الدفاع عن الحيوانات الأليفة بمنتهى الجدية. قالت: "التقيته لأول مرة وجها لوجه في 1967 أثناء معرض استرجاعي لأعماله في لندن، غير أن الوقت لم يكن مناسبا للحديث بشكل مريح. كان مشغولا بتوضيح أفكاره للجميع وكان مدافعا عن قيمه ولماذا ينظر إلى القطط بقداسة، وربما في تلك الفترة بالذات احتاج بالتوس للدفاع لأن الحراك الفرنسي كان مشتعلا، وكان العرض في لندن فرصة للهروب من نيران باريس.. وبعدها بشهرين كنت في السجن، وكنت استرجع أقواله"

كان مدير متحف تايت الإنجليزي، ومنظم المعرض قد اقترح عليه أن يقدم فقرة تستخدم كسيرة ذاتية قصيرة له، فأسرع بالتوس للقول: " إن أفضل طريقة للبدء في هذا، هي أن تقول: بالتوس رسام لا تعرف عنه شيئاً. والآن، تعالوا ننظر إلى لوحاته".

ابتسم مدير تايت وهو يرد على بالتوس: "أليس من الأفضل أن نكتب فقرات من قصيدة القطط لبودلير.. لأنهما أكثر فصاحة بكثير من أي سيرة عادية تكتب للمناسبة".. شعر بالتوس بالغضب

لكنه لم يعلق. وأنهى زيارته للندن بعد يومين من بدء المعرض عائدا إلى باريس ليراقب عن كثب ما يحدث من تطورات.

علقت باردو: "قد يكون مدير تايت مغاليا في ما قاله.. وربما سخر من بالتوس دون أن يتحكم في لسانه، أما الحقيقة في نظري فإن بالتوس كان أعظم بكثير من بودلير.. الأخير كتب قصيدة واحدة عن القطط، لكن الأول وإذا نظرنا إلى تجربته ككل سنجد أن عائلته الحقيقية هي القطط وليس البشر". قالت ذلك وهي تنظر اتجاه هارومي التي قابلت نظرات باردو بإبتسامة مقتضبة فهي على أية حال ابنته سواء كانت قطة أم لا.

تدخل أزوهارا الذي كان لديه معلومات شبه كافية عن بالتوس اطلع عليها خلال الأيام السابقة وهو يعد للفيلم، قال: "لا اعتقد أن بالتوس الحقيقي كان مشغولا بالقطط.. إنه مهموم إلى حد بعيد بالبشر.. وأحيانا يكون أمام الفنان أن يتحايل على الحقيقة وينظر إليها من زاوية أخرى".

شاركت هارومي في الحوار: "بابا كان يتعمد أحيانا التضليل.. أنا أعرف ذلك جيدا.. وجه إليه انتقاد من البعض أنه يكثر من شرح لوحاته للجمهور في المعارض.. وفي الواقع لم يكن يقدم شرحا كان يقول عن اللوحة أمورا مختلفة تماما عن مضمونها الذي يعشعش بداخله. أشهر مثال على ذلك أن الكثيرين ظلوا يعتقدون أن لوحة (قط البحر الأبيض المتوسط) التي رسمت سنة 1949، كانت بحسب رواية بابا نوعا من التكريم لقطه الذي اختفى في ذلك الحين، وأشاعوا أنه رسم أربعين لوحة لهذا القط الضائع.. هذا لم يكن صحيح مطلقا".

سألت باردو: "ولماذا انتهج هذا الأسلوب؟!"

هارومي: "كان يرى أن الفن لا يشرح.. إنما هو عمل تأملي للروح.. وكان يؤمن أيضا أن التضليل ضروري لجعل المتلقي يستسلم لعالم آخر غير الذي تولدت اللوحة في فضائه.. بالنسبة له أن العالم ولكي يكتسب معناه يجب أن يحفل بقليل من التوابل الضارة كالكذب.. وضروي أن يتم ذلك وفق معرفة ووعي تام من الفنان كان أم السياسي أم الكاتب"

تضيف هارومي: "لو لم يكن بابا رساما لكان ممثلا مسرحيا.. لقد قال لي أن تلك كانت رغبته في صباه.. ويعتقد أن المسرح حاضر بدرجة وافية في أعماله.. لكن ما يلاحظه على نفسه أنه أعطى القطط الجانب الأكبر من الأداء المسرحي في لوحاته أكثر مما أعطى للبشر.. ويضرب مثالا واضحا على ذلك بلوحته الأكثر شهرة (ملك القطط) حيث يرى أن القط في اللوحة كان أكثر تعبيرا من حيث الموقف المسرحي بالمقارنة مع وقفته هو بالتوس المتواضعة.. ولهذا لم يكن غريبا أن تحتوي اللوحة على ذلك الشاهد الموضوع بجوار بالتوس وقد كتب عليه بالإنجليزية: (بورتريه لصاحب الجلالة ملك القطط، رسمه هو بنفسه في العام 1935).. كان يريد أن يقول أن القط هو الذي رسم وليس أنا إنه تضليل واضح سيدة باردو، لكنه ضروري بنظرة بالتوس إلى قيمة الفن".

تتذكر هارومي أن والدها كان قاسيا في بعض الأحيان حتى على نفسه، وهذه القسوة اتضحت في فنه بشكل خفي. وقلة هي التي لاحظت ذلك، منهم باردو، التي أكملت الحديث: "كانت قططه إلى حد ما قاسية.. أنه ممسرح قاس، وهو بشكل أو بآخر كان يعبر عن قسوة عامة في طبيعة المرأة الفرنسية سواء تعلق الأمر بالبعد الأيروسي أو الشخصي لها. هناك من قال بذلك، لقد

قرأت ما كتبه (كلود روا) وأظنه أشار لهذه القسوة وهو يحلل مجموعة من أعمال بالتوس.. وقال شيئا جميلا آخرا عنه، إنه يرسم ليعثر على الأسرار الضائعة وليس المدركة.. وهذا يجعل من نظرة ثانية أو مغايرة أن مسألة القسوة قد تكون تضليلا من بالتوس.. بمعنى أنها لا تعكس الحقيقة".

أخذت باردو هارومي و أزوهارا في جولة بصالة الاستقبال وهي تستعرض اللوحات المعلقة بها واحدة تلو الأخرى..

اللوحة الأولى: "جندي يبدو أنه روماني يحمل درعا وبجواره قط يحمل درعا أيضا"

توضح باردو: "كان الرومان يعتقدون أن القط يمثل آلهة الحرية.. ولهذا قدسوه، ولكن عندما انتشرت المسيحية نالت من حظ القطط، وقاد بودوان الثالث بالتخلص منها ليثبت أنه مخلص للمسيح.. مشيعا أن القط يظل رمزا وثنيا كما كان عند الفراعنة، وكان يتجاهل أن المسيح نفسه كان يعشق القطط.. وكثير من لوحات عصر النهضة أظهرته على هذه الشاكلة.. بودوان لم يكن محترما أبدا فقد ألقى قططه من نافذة القصر وبدأ معه تقليد غير أخلاقي ما زال يمارس وهو (مهرجان القطط) الذي تخضع فيه للتعذيب والموت الجماعي".

اللوحة الثانية: "رجل يشرب دم القط وقد تدفق الدم بغزارة من الحيوان المذبوح، ويبدو الرجل عاريا تماما.. وإلى جواره امرأة تحتضنه ودم يسيل من فمها.. يبدو أنها هي الأخرى تشرب دما.. وفي الخلفية مجموعة من الرجال والنساء العراة الملطخين بالدم.. وفتاة تعزف على بيانو.. والفراغ شبه معتم حيث الإضاءة خافتة في المكان"

توضح باردو: "إنهم عبدة الشيطان.. يؤمنون بخلود الكون والإنسان لهم آراء رائعة.. لكنهم يخطئون حين يقتلون القطط ويذبحونها باعتبار أن نفوسها من الشيطان الذي يعبدونه ولهذا يقومون بشرب دمائها ويلطخون بها أجسادهم.. ووجوههم أيضا، حتى يسكنهم الشيطان. إنهم ينتشرون الآن بكثافة في أمريكا وأيضا عندكم في اليابان"

اللوحة الثالثة: "لسيدة باهية الجمال.. لا يوجد قط ولا أي حيوان هنا.. كانت تعمل مكياجا لوجهها وتضع الأصباغ عليه وعلى شفتيها"



قالت بارود: "يبدو واضحا انها ارستقراطية من العصور القديمة.. بالتحديد هي من العصر الأغريقي إنها سافو التي كانت معجبة بجمالها إلى حد بعيد.. هل سمعتم عن سافو الفرنسية تلك الجمعية التي كانت تروج لقذارات النساء.. هذه هي أمهم الروحية التي تعلموا منها الانحراف.. لكن عذرا ابنتي إذا كان والدك مضللا.. فهو ساهم في أن تغوي المرأة الفرنسية نفسها لدرجة أنها لا ترى غير جسدها.. ولا ترى غير جسد الإنثى كمالا وقدرة على الإغواء واللذة.. لهذا انحرفن عن الكمال الحقيقي بأن يكن طاهرات.. هيا لنري كيف أن والدك قلد هذه اللوحة وساهم في نشر الإغواء وتقديس المرأة الكذّاب لنفسها".

تحركوا قليلا، اجتازت بارود ثلاث لوحات توقفت، وقالت لهما: "أنظرا"



كانت هارومي قد شعرت بالدهشة.. لم تفكر ذات يوم أن والدها مقلدا بدرجة ما، غير أنها اقنعت نفسها أن الأفكار قد تتوارد.. وماذا يفعل الفنانون إنهم يستنسخون بعضهم البعض.. ولم تعلق منتظرة سماع باردو التي قالت: "إلى حد كبير يتضح هنا استنساخ سافو.. تقليد صورة المرأة السحاقية التي تهتم بما حولها.. اعتقد أن القط هنا رمز ذكري.. أنظرا إلى عينيه كم هو معلق بهذه الفتاة الجميلة.. لكنها لا تهتم به، إنها معلقة بصورة الأنثى المعكوسة في المرآة والتي هي نفسها.. لقد كان شعار جمعية سافو امرأة تحمل مرآة.. من أين أتوا بذلك.. لا اعتقد أن الإجابة معقدة.. هي واضحة تماما".

".. في حياة سافو من الأسطورة ما هو أكثر من الواقع. لكن الأساطير وبعد قرون طويلة تصبح ملهاة للفن، وتتحول في نظر عامة الناس إلى حقائق.. والفنانون يلعبون هذا الدور المضلل. بدأت حياتها شاعرة وانتهت بتكوين جمعية للنساء اللائي لا يرغبن بسوى جنسهن. كانت تدلل القطط.. مخطئ من يقول إن القطط كانت معروفة في مصر فقط.. فالعالم عرفها في أماكن كثيرة.. لكن الفرنسيين هم الذين روجوا أن مصر هي أم القطط.. يصعب عليّ أن أعرف الأسباب.. المهم ان سافو كرهت الرجال بسبب شقيقها، تشاراكوس.. والذي سبب لها الشقاء والتعاسة.. كان يضربها كثيرا.. ووجدت في القطط مساحة للعاطفة الضائعة.. عاطفة فتاة يتيمة.. كان تريد أن يعينها شقيقها في ظروف الزمان.. وربما لهذه الأسباب كتبت الشعر.. يقال

أيضا أنها عشقت لفترة شابا يدعى فاون لكنه لم يحفل بها.. وهذا أصابها بالجنون أن تكره جنس الرجال تماما.. وزاد خنقها على الرجال عندما أحرقت كتبها من قبل حاكم المدينة ففقدت جل أشعارها.. كانت بالإضافة لكونها شاعرة بارعة في الموسيقى وابتكرت قيثارة بها 21 وترا وغنت قصائدها، التي مجدت فيها المرأة مكللة رحلتها بإنشاء جميعة ومدرسة نسوية صغيرة كرست لما ينضج صفات الأنوثة لدى الفتيات لكي يصبحن رفيقات لبعضهن البعض.. وفي قصائدها تبدى معجبة بتلميذة نجيبة أو تظهر بعض غيرة على أخرى وهكذا.. كما أنها تشدو لما تعانية من أسر فراقهن.."

أوضحت بارود: "لاحقا عندما عرفت عن تفاصيل سافو الفرنسية.. بمصادري الخاصة.. فأنا أمرأة متغلغلة في المجتمع الفرنسي وصاحبة نفوذ.."، تقول ذلك ضاحكة وتواصل: "وجدت أنهم يحتفون بتلك الأشعار.. وكانت سيمون دي بوفوار هذه المغرورة المعجبة بنفسها تحدثهم أن هذه القصائد أكبر دليل على أن سافو كانت مثلية وأن اختراعها انتشر ليعم أوروبا ففي روما كانت للنساء حمامات قد أُعدت لممارسة السحاق بين البنات والفتيات بكل أنواعه وأشكاله، وخلد التاريخ أسماء نساء في هذا الإطار أمثال (أغريبتا) و(ياسا) و(ترجينا)".

لا يعرف أزوهارا ولا هارومي شيئا عن جمعية سافو الفرنسية من قبل ولا عن علاقة بوفوار بها ولم يسألا. ووجد أزوهارا أن الوقت يمضي وأن باردو التي تعيش شبه عزلة منقطعة عن وسائل الإعلام والتي قبلت لقائهما بعد إلحاح، كأنما تبحث عمن تثرثر معه، وكان من الصعب لرجل مؤدب مثله أن يحرجها بطلبه الدخول في الموضوع مباشرة، حيث جاءا بهدف الفيلم.. جاءا ليتحدثا عن بالتوس.. وليس عن القطط.. قال ذلك لنفسه، لكنه اكتشف أنه من غير السهل التفريق بين فيلم عن بالتوس وآخر عن القطط.

-32-

في مايو 2009 عرض المخرج الإيراني الكردي الأصل "بهمن قبادي" فيلمه " لا أحد يعرف عن القطط الفارسية" في مهرجان كان السينمائي، وقال للصحافة إن الفيلم يترجم معاناة شباب إيرانيين في رحلة بحث عن "حرية التعبير الموسيقية"، ويتحدث الفيلم، عن الساحة الموسيقية في إيران والفرق التي تنشط سراً. وتدور القصة حول حياة موسيقييْن سجنا بعض الوقت لتمردهما على رقابة السلطات، وكيف يحاولان إنشاء فرقة جديدة والحصول على تأشيرات وجوازات سفر تسمح لهما بمغادرة إيران.

وقد صرّح بطل الفيلم اشكان كشنجار: "نأمل ونعتقد أنه سيحدث يوم ما... ان ينفصل الفن عن السياسة ان ينظر له بشكل اخلاقي". كان واقفا أمام مجموعة من الصحفيين في كان الفرنسية، قريبا من تمثال لشارل ديغول، ولم ينتبه أحد إلى أدنى علاقة بين موضوع الفيلم وديغول، لكن صحفيا مغمورا وقارئا جيدا، سأل كشنجار: "هل تعتقد أن وجود المخرج بهمن قبادي في فرنسا لسنوات طويلة له علاقة باختيار اسم الفيلم؟"..

لم يكن كشنجار مثقفا، فدوره يقتصر على التمثيل.. لهذا لم تأت منه إجابة مقنعة للصحفي المغمور، الذي هرول بعيدا يلاحق قبادي ليسأله السؤال نفسه، ولم يخيب بهمن أمل الصحفي حيث رد بإقتضاب: "إذا كنت مطلعا على التاريخ الفرنسي ستعرف بسهولة إنني لم أقم بجديد..

وأنا أختار عنوان الفيلم.. فالحديث عن فرقة موسيقية ممنوعة لرجل يعيش في المنفى، هنا تحديدا لن يذكر بشيء بغير شيء واحد هو القطط.. لقد قدمت القطط أكبر رمزية للغناء في فرنسا الستينات". كان قبادي يشير إلى ذلك المنع التاريخي الذي صدر بإيقاف فرقة "ملك القطط" وغيرها من عشرات الفرق غير المعروفة بدرجة الأولى، بعد تنازل ديغول عن الحكم. وأضاف يقول للصحفي: "على أية حال تظل فرنسا أكثر شفقة بكثير من بلادي.. في الرأفة بالقطط". ثم علق ساخرا وهو يسرع الخطى مبتعدا قبل أن تلتقطه عدسات المصورين: "ق طط إيران مثل شبابها يعيشون جميعا بعيدا عن الأضواء".

وقف الصحفي لثوان ينظر إلى ملصق الفيلم أمامه:



وبعدها كتب على دفتر ملاحظاته: " اعتقد أنه لا أحد يعرف عن القطط الفارسية ولا الفرنسية أيضا!!".. ولاحظ أن الملصق يتضمن في الخلفية صورا لجماجم أحالته لمشهد القراصنة في بحار القرون الوسطى، وأدرك فورا أن نهاية القط.. أو غيابه تعني ذلك المصير.. الموت!!، ودونما تفكير .. وبحكم إلمامه بمجريات ما يحدث في العالم من خلال عمله في الصحافة.. استحضر صورة قراصنة الصومال وهم يجوبون المحيط الهندي.. متذكرا تقريرا صحفيا لوكالة رويترز أوردت فيه خبر القبض على عدد من القراصنة الصوماليين الذين احتجزوا سفينة روسية، وكان بصحبتهم في القارب الذي يستغلونه مجموعة من القطط. لكن رويترز لم تتوقف لتخبرنا ماذا كانت تفعل تلك القطط!!.. فيما يعلم الصحفي أن السبب يتعلق بالسحر والفأل الحسن، فاصطحاب القراصنة للقطط يعني بالنسبة لهم نجاح مهمتهم التي فشلت هذه المرة.

في صالة الطعام التي جمعت الكثير من الفنانين والممثلين والمخرجين والإعلاميين، لاحظ الصحفي أن رجلا يجلس هناك بعيدا في ركن قصي من المطعم، وعرفه فورا إنه المخرج الياباني أكيهيتو أزوهارا الذي سيعرض له غدا فيلم " شارتر". تقدم نحوه وسلم عليه وعرفه بنفسه أنه صحفي يرغب في إجراء مقابلة معه ولكن بعد أن يشاهد الفيلم. ووافق أزوهارا فقد كان أول شخص يتقدم بهذا الطلب، فيبدو أنه لا أحد هنا يعرف بالتوس، فهل نست فرنسا ذلك الرجل العظيم، أخبر نفسه.

وفي المساء التالي كان الصحفي يشاهد "شارتر Chartreux"، التي كان يعرف معناها جيدا، حيث أنها كلمة مرادفة لتعبير "قط فرنسا الأزرق" الذي هو قط خاصة الناس والأثرياء، غير أن تربيته ليست سهلة كالأنواع الأخرى من القطط وهو لا يربي من أجل التعايش معه وإنما

للحصول على فرائه ولحمه الغاليين، وقد سمي بهذا الاسم نسبه إلى منطقة شارتر الفرنسية. وقد حافظ شارتر على سلالته النادرة وعمل الفرنسيون في المستعمرات على القضاء على المئات منه ساعة وجودا أن له ذرية في بلدان بعيدة، وكانت أوامر قد صدرت بذلك من ديغول، وكان شارل ديغول نفسه يربي العشرات منه ولم يرد أنه كان يرغب في الاسترزاق منها. وعندما أصدر قرارة بإعدام القطط لم تعدم قططه، بل رحلت معه فيما بعد إلى حيث قضى أيامه الأخيرة في كولومبي الفرنسية ذات الكنيستين، وبعد موته اهتمت زوجته " إيفون فوندرو" بشأن القطط، ومن المفارقات أن الفرنسيين كان يطلقون على "إيفون" لقب"شارتر" ذلك لأنها كانت امرأة صامتة، مثلها مثل القط شارتر الذي عرف بصمته فهو لا يموء وهادئ العشرة ولطيف جدا. وكل هذه الصفات كانت تحملها "إيفون".

في كتاب للفرنسية فردريك نو ديفور صدر في 2010 بعنوان "إيفون دو غول" عن دار فايار في باريس، تقول المؤلفة إنه على مدى عشر سنوات من حكم ديغول، كانت "العمة إيفون" — كما يحب أن يسميها الفرنسيون أحيانا - ، تفضل الابتعاد عن الأضواء، تستطيع أن تتجوّل في شوارع باريس دون أن يتعرّف اليها أحد، ولم يكن لها أي تسجيل صوتي ولا أية مقابلة مع الصحافة، لدرجة أن الفرنسيين تكلموا عن عدم أهليتها لأن تكون السيدة الأولى وأنها لا تنفع إلا لحياكة الصوف وإعداد الطعام. فهي لا تحب قصر الإليزيه بالرغم من معرفتها بما كان يدور فيه بالكامل لكنها لم تتأخر أبداً بالمقابل عن تأدية "الواجبات الرسمية" المتعلقة بزوجة رئيس الجمهورية. ومن أبرز الطرائف التي يذكرها الكتاب عن حياة "العمة إيفون" أنه في بوتي-كلامار وعلى خلفية إعلان شارل ديغول استقلال الجزائر تعرضت مع زوجها لمحاولة اغتيال في الثاني والعشرين من أغسطس سنة 1962 من قبل جان باستيان تيري الضابط المهندس في القوى الجوية الفرنسية بعد أن فتح نار الرشاش على السيارة "سيتروين دي إس" التي كانت تقل الرئيس الفرنسي وزوجته وأنها بعد أن نجت سألت الجنرال ديغول: "أتمنى أن تكون القطط بخير"، مما أثار حفيظة مرافقي الرئيس معتقدين أنها تقصدهم، في الحقيقة كانت إيفون وضعت قطط شارتر في الصندوق الخلفي للسيارة بالفعل وكانت تعني ما تقول!!.

لم يكن غريبا أن يبدأ الفيلم "شارتر" بهذا المشهد الأخير، بهذه الطرفة الصحيحة، والتي لم يسبق للصحفي أن سمع عنها رغم ثقافته الواسعة عن بلده، وعندما جلس في المطعم يحاور المخرج أزوهارا عن الفيلم، أخبره: "معرفتك ممتازة بفرنسا.. لقد جذبني مشهد السيدة الصامتة".

ضحك أزوهارا، وردّ: "من يرغب في معرفة فرنسا فعليه أن يدرس بالتوس.. هذا ما فعلته بالضبط"

واصل: "لكن على العموم كان المهم أن أبدأ بنقطة مثيرة.. طريفة.. كما أن البداية بامرأة ونحن نتحدث عن القطط، أمر جيد، وقد وجدتها في إيفون التي يتحدث الناس كثيرا عن ديغول دون أن يتعرضوا لذكرها.. اعتقد أيضا أن بالتوس هو الأخر لا أحد يعرفه الآن جيدا"

رد الصحفي: "هذا صحيح.."

أزوهارا: "رغم كل الأثر الذي تركه"

الصحفي: "تماما..وإذا كان فرنسوا مورياك قال: عندما لا يعود ديغول موجودا سيبقى مع ذلك وجوده مستمرا.. فالأمر نفسه ينطبق على بالتوس.. فأن تكون موجودا لا يعني أن يذكرك الناس بشكل مباشر.. ففرنسا تعيش ثورة بالتوس.. حتى لو لم تشعر بوجوده الحقيقي معها.. أو حتى لو جهله الجيل الجديد.. وبوصفي فرنسيا أصيلا فإنني أشكرك على أن منحتنا هذا الفيلم"

سأل أزوهارا :"فرنسيا أصيلا.. ماذا تعني؟!"

ابتسم الصحفي قائلا: "أعني أنني أصيل فعلا.. ولست كبالتوس الدخيل"، وقهقه.

شعر أزوهارا بأن الشاب رغم ثقافته وحديثه الذي يبدو فيه منفتحا وإنسانيا إلا أنه يمثل صورة لذلك الجرح العميق الذي تعيشه فرنسا جراء سياسات ديغول ولم تتخلص منه إلى الآن.. تلك اللهجة العنصرية المتهكمة والبغيضة، لكنه تجاهل التفكير في الأمر ووجه سؤالا للصحفي عن فيلمه: "ما هي المشاهد التي ظلت بذهنك؟"

رد الصحفي: "بشكل عام أعجبني الفيلم.. إنه جيد إلى حد بعيد.. ويلخص فكرة ممتازة عن بالتوس.. لكن هل كان ضروريا أن تقحم فيه قصة الشركة اليابانية التي تعمل على صنع جهاز إلكتروني لترجمة مواء القطط لكي يكون مفهوما؟!"

أزوهارا: "هل تعرف أن بالتوس هو أول من فكر بهذا الشيء.. عد إلى اللوفر وسترى ذلك.. لن أخبرك باسم اللوحة.. عد لتتعرف عليها بنفسك". قال ذلك رغبة منه في تجهيل الصحفي الذي بدا يشعر بالضيق منه وعليه أن يتخلص منه باستفزازه، هكذا فكّر أزوهارا.

اقتربت فتاة طويلة متوسطة الجمال، لم يكن وجهها غريبا على الصحفي، فقد كانت تشبه بالتوس، إنها إذن هارومي ابنته. وقبل أن تجلس لاحظ عليها أنها مكتئبة بعض الشيء..
وهمست في إذن أزوهارا بصوت خافض، وكانت العبارة الأخيرة مسموعة: "علينا أن نغادر فورا قبل أن يقتحموا صالة الطعام".

كانت هناك أصوات ترتفع شيئا فشيئا في الخارج، ومن النافذة عبر الزجاج وجّه الصحفي عدسته يلتقط صورا لعشرات الشباب وهم يقتحمون ساحة مهرجان كان حاملين لافتات ومكبرات صوت، وسمعهم يهتفون: "الموت للقطط". وقرأ في أحد اللافتات اسم الجماعة المتظاهرة فعرفهم على الفور: إنهم هؤلاء الشباب الذين تظاهروا قبل أسبوع في إيطاليا مطالبين بأعدام القطط درءا للحظ السيء، وقد جاءوا من بلدان مختلفة من أوروبا وشرق آسيا وأمريكا وتجمعوا في روما ومن ثم ساروا لبرلين. وفي روما لم تجد السلطات أمام ضغطهم في السنة الماضية سوى إعدام 60 ألف قطة خلال العام نفسه. وفي غضون دقائق كان ثلاثة منهم يمسكون بالمخرج الياباني في محاولة لخنقه وسط تدخل رجال الأمن بالمهرجان.

كان الشباب يصرخون بهتافات ترفض تحويل مهرجان كان لأفلام مسرحها القطط، وكان الصحفي يلتقط الصورة الأخيرة من عدسة الكاميرا التي تعمل بنظام الأفلام القديم، ولكن يبدو أن عينه قد أخطأت فحين حمّض الفيلم، ظهرت على الخلفية لوحة كانت معلقة على الجدار في صالة الطعام، كانت واضحة وجلية وكأنه لا أحد في المطعم ليشوش جزءا منها.



عرفها الصحفي الشاب إنها إحدى اللوحات التي رسمها بالتوس وروجت لها جمعية سافو وعلقها شارل ديغول في مكتبه ولم ينزعها إلا يوم اتخذ قراره بتسميم القطط على طريقة رمسيس الثاني. لكنها هنا قد بدت بوجوه أنثوية حقيقية وليست رسما.. وتذكر أنها ليست اللوحة ذاتها وإنما ملصق فيلم "شارتر" المستوحى منها..

- انتهت-